دلالة الاشتغال
وأغراضه في القرآن الكريم

للباحثة

الأستاذ المساعد الدكتورة سهاد جاسم عباس

الجامعة العراقية / كلية التربية للبنات

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، محمّد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اقتدى به وسار على نهجه إلى يوم الدين . وبعد..

فإنّ هذا البحث يعنى بأسلوب من أساليب العربيّة، أسلوب عني به النحاة، فلم يكد يخل كتاب من كتبه من بابه، فكثرت فيه أقاويلهم، وتشعّبت آراؤهم، فأسهبوا في عرضه وأطالوا. ولم يغفله المحدثون، فأهمّهم هذا الباب، فتناولوه درساً وتفصيلاً . على أنّ دراساتهم له تدخل في إطار التقعيد النحويّ، فتناولوا هذا الأسلوب بتحليل التركيب الجمليّ، والتحليل الإعرابيّ لمكوّناته . ولم يكد يعنى بالجانب الدلاليّ لهذا الأسلوب، وبيان بلاغته، وأثره في البيان، إلاّ الدكتور فاضل السامرّائيّ، في كتابه معاني النحو، إذ وقف عند هذا الأسلوب وقفات دلاليّة مجدية.

وهذه الدراسة تركّز على هذا الجانب الدلاليّ لأسلوب الاشتغال، فليس الهدف منها الخوض فيما خاض به النحويّون من الدراسات النحويّة التركيبيّة والإعرابيّة له، بل هدفها بيان بلاغته، وأثره البياني في التعبير عن المعاني الّتي يسوقها المتكلّم، مخرجاً لها في حلّته.

ابتدأ هذا البحث بتمهيد، أوجز مفهوم الاشتغال عند النحاة، وأهمّ المسائل الّتي تناولوها في دراستهم لهذا الباب . تلاه فصلان، الأوّل منهما في بلاغة الاشتغال، فيه بيان للأثر الدلاليّ لهذا الأسلوب عند نصب المشغول عنه، وما يؤدّيه من معنى في حال رفعه . أمّا الفصل الثاني، ففيه بيان لأغراض هذا الأسلوب من خلال شواهده من القرآن الكريم .

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على مصادر نحويّة وبلاغيّة، إذ أفدت من مصادر النحو في بيان اللمحات المعنويّة الّتي وردت عند النحاة في دراستهم لهذا الباب، ومن أهمّها: كتاب سيبويه، والإنصاف في مسائل الخلاف لأبي البركات الأنباري، ومغني اللبيب لابن هشام الأنصاري . ومن الدراسات النحويّة الحديثة: إحياء النحو لإبراهيم مصطفى، ومعاني النحو للدكتور فاضل السامرّائي .

أمّا مصادر البلاغة، فقد كانت لها أهمّيّتها في هذا البحث، فقد أفدت ممّا ورد في مباحث التقديم والتأخير، والإسناد، والتعلّق . ومن أهّمها: دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، ومن الكتب البلاغيّة الحديثة: البلاغة العربية لعبد الرحمن حسن الميداني، والبلاغة العالية لعبد المتعال الصعيدي . وفي الفصل الثاني أفدت من كتب التفسير، الّتي من أهمّها، جامع البيان للطبريّ، والكشاف للزمخشريّ، وأنوار التنزيل للبيضاويّ، والتحرير والتنوير لابن عاشور .

والله تعالى أسأل التوفيق والسداد، وأن يكتب لي أجر هذا العمل، ويخلصه لوجهه الكريم، فيجعله لي ذخراً يوم نلقاه . إنّه كريم سميع مجيب الدعاء.

* * *

التمهيد

مفهوم الاشتغال

يعدّ أسلوب الاشتغال من الأساليب القائمة على تقديم المعمول على عامله، فيكون إذا تقدّم واشتغل معموله بضميره، أو بما يلابسه . يقول ابن هشام: هو " أن يتقدّم اسم، ويتأخّر عنه عامل، هو فعل أو وصف . وكلّ من الفعل والوصف المذكورين مشتغل عن نصبه له بنصبه لضميره لفظا كـ(زيدا ضربته)، أو محلاّ كـ(زيدا مررت به)، أو لما لابس ضميره، نحو: زيدا ضربت غلامه أو مررت بغلامه.»(١) ويعرّفه ابن الحاجب بأنّه: «كلّ اسم بعده فعل أو شبهه، مشتغل عنه بضميره أو متعلّقه، لو سلّط عليه أو مناسبه؛ لنصبه.»(٢)

وأركانه ثلاثة(٣): **١ـ المشغول عنه، وهو الاسم المتقدّم. ٢ ـ المشغول، وهو العامل المتأخر من فعل أو شبهه . ٣ ـ المشغول به، وهو ضمير الاسم السابق أو سببيّه .**

ويجوز في المشغول عنه إذا اشتغل عنه عامله بضميره وجهان: الرفع على الابتداء، والنصب، مختلفاً في إعرابه، فذهب البصريّون إلى أنّه منصوب بفعل محذوف وجوباً يفسّره المذكور، فلا يجوز أن يجمع بين المفسَّر والمفسِّر . وذهب الكوفيّون إلى أنّه منصوب بالعامل المذكور، فضميره دالّ عليه(٤) .

---

(١) شرح شذور الذهب ٥٤٦ ، وينظر: دليل السالك ١ / ٣٥٥، ومعاني النحو ٢ / ١٠٨ ..

(٢) شرح الكافية ١ / ١٦٢، وينظر: الإعراب والتركيب بين الشكل و النسبة ٣٢٤ .

(٣) ينظر: دليل السالك ١ / ٣٥٦ .

(٤) ينظر: تفصيل ذلك وبيانه في: الإنصاف في مسائل الخلاف ٧٧ ـ ٧٨، المسألة رقم ١٢ ، و شرح شذور الذهب ٢٨٠ .

وللاشتغال صور ذكرها النحويّون، هي(١):

١ـ أن يشتغل الفعل بضمير عائد على المشغول عنه، ومثّلوا له بقولهم: زيداً ضربته. فيكون تقدير الناصب عند من ذهب إلى إضماره: ضربت . ومنه قول المتلمّس(٢) :

شدّوا الجمالَ بأكوارٍ على عَجَلٍ والظلمُ يُنكِرُه القومُ المكاييسُ

٢ ـ أن يشتغل العامل بملابس الضمير العائد على المشغول عنه، أو سببيّه، ومثّلوا له بقولهم: زيداً ضربت أخاه . فيكون تقدير الناصب: أهنت . ومنه قول بلعاء بن قيس الكناني(٣):

فلمّا أبي أرسلْتُ فضلةَ ثوبِه إليه، فَلمْ يرجِعْ بحزمٍ ولا عزمِ

والمعنى: أرسلت إليه فضلة ثوبه

٣ـ أن يكون المشغول به مجروراً بحرف جر متعلّق بالفعل، ومثالهم هو: زيداً مررت به. وتقديرهم لناصبه: جاوزت .

ومنه قول سنان بن حارثة المري(٤):

وبنو نُمير قد لقينا منهمُ خيلاً تَضِبّ لِثاتُهم للمَغْنَمِ

وقف النحويّون وقفات طالت وتشعّبت فروعها، في بيان مواضع الرفع والنصب للمشغول عنه، من ترجيح لأحد الوجهين على الآخر، أو جواز، أو وجوب، ويمكن أن نلخّص ما ورد عندهم بما يأتي :

١ـ وجوب النصب، فموجباته ما كان من المواضع مختصاً بالأفعال، كأن يأتي المشغول

---

(١) ينظر: شرح شذور الذهب ٢٧٩ ـ ٢٨٠، وشرح قطر الندى ١٩٢ .

(٢) جمهرة أشعار العرب ١٧٣ .

(٣) الحماسة البصرية ١ / ٦٣ .

(٤) المفضليات ٣٤٨

عنه بعد أدوات الشرط، نحو: إن زيداً لقيته فأكرمه، حيثما عمراً رأيته فسلّم عليه(١) أو بعد أدوات التحضيض كـ(هلاّ)، ولولا، ولوما، وألاّ، أو بعد أدوات الاستفهام غير الهمزة(٢).

على أنّ المشغول عنه جاء في الشعر العربيّ مرفوعاً، ومنه قول المرقّش الأكبر(٣):

إذا علمٌ خلّفته يُهتدى به،   بدا علمٌ في الآل أغبُر طامسُ

وقوله(٤):

حتّى إذا ما الأرضُ زيّنتْها الـ   ـنبتُ وجُنَّ روضُها وأكمْ
ذاقوا ندامةً، فلو أكلوا الـ   ـخُطبانَ لم يوجدْ له عَلقَم

٢ ـ رجحان النصب: فيترجّح نصب المشغول عنه على رفعه، في الحالات الآتية(٥):

١ ـ أن يجاب به استفهام، بمفعول ما يليه، كقولهم: زيدا ضربته . جواباً لمن قال: أيّهم ضربت؟ أو بمضاف إليه مفعول ما يليه ، كقولهم: ثوب زيد لبسته . جوابا لمن قال: ثوب أيّهم لبست؟

٢ ـ أن يلي الاسم السابق فعل أمر أو نهي أو دعاء، نحو: زيداً زره . أو عمراً لا تقربه. أو ذنوبنا اللهمّ اغفرها. ومنه قول عبد قيس بن خفاف(٦):

والضيفَ أكرِمْه، فإنّ مبيته   حقّ، ولا تكُ لعنةً للنُزَّلِ

---

(١) ينظر: شرح الكافية الشافية ١ / ٢٧٥ .

(٢) ينظر: توضيح المقاصد ٦١٣، والأساليب الإنشائيّة في النحو العربي ٧٠ ـ ٧١ .

(٣) المفضليات ٢٢٦ .

(٤) المفضليات ٢٤٠ .

(٥) ينظر: شرح الكافية الشافية ١ / ٢٧٦ ـ ٢٧٨، وشرح التسهيل ٢ / ١٤١ ـ ١٤٢، وهمع الهوامع ٣ / ١٣٣ ـ ١٣٤، وإحياء النحو ١٥٢ ـ ١٥٣ .

(٦) المفضليات ٣٨٤ .

وقول عمرو بن الأهتم(١):

وجاري لا تُهينَنْه وضيفي … إذا أمسى وراء البيت كورُ

٣ـ أن يلي الاسم السابق همزة استفهام، أو حرف نفي غير مختصّ، نحو: أزيدا ضربته. وعمراً ما أهنته . أمّا غير الهمزة من أدوات الاستفهام من موجبات النصب . قال مهلهل ابن مالك الكناني:

فما جزعٌ بمغنٍ عنك شيئاً … ولا ما فات تُرجِعُه الهمومُ

فالمشغول عنه هو الاسم الموصول (ما)، وصلته الجملة الفعليّة (فات)، والفعل (ترجع) هو الفعل المشغول بالضمير العائد على الموصول . والتقدير: ولا تُرجع ما فات الهموم، ترجعه .

وقال المهلهل بن ربيعة(٢):

الحزمَ والعزمُ كانا من صنيعته … ما كلَّ آلائه ـ يا قومُ ـ أحصيها

٤ـ أن يلي الاسم السابق (حيث)، نحو: حيث زيداً تلقاه يكرمك .

٥ ـ أن يلي الاسم حرف عطف، قبله جملة فعليّة ، نحو لقيل زيداً وعمراً كلّمته . وجاء سعد وسعيداً زرته.

٦ ـ أن يكون مخلّصاً من إيهام غير الصواب، والرفع بخلاف ذلك، كقوله تعالى:(إنّا كلَّ شيء خلقناه بقدر) فنصب (كلّ شيء) يرفع توهّم كون (خلقناه) صفة لشيء، إذ لو كان صفة له لم يفسّر ناصباً لما قبله ، وإذ لم يكن صفة، كان خبراً، فتعيّن عموم خلق الأشياء بقدر، خيراً كانت أو شرّاً . ولو قرئ (كلّ) بالرفع، لاحتمل أن يكون (كلّ) صفة، وأن يكون خبراً، فنصب لرفع احتمال غير الصواب .

---

(١) المفضليات ٤٠٩ .

(٢) ديوانه ٩ .

٣ـ وجوب الرفع: وذلك إذا وقع المشغول عنه بعد ما يختصّ بالأسماء، كأن يقع بعد (ليتما) نحو: ليتما بشر زرته . لأنّ هذه الأداة لا يليها فعل أو إذا وقع بعد (إذا) الفجائيّة(١) .. أو يقع قبل أداة لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، كأدوات الاستفهام، و(ليت)، و(ألا) المفيدة للتمنّي، وفعل التعجّب، نحو: زيد أين لقيته ؟ أو زيد ما أحسنه!(٢) ولام الابتداء، نحو: بشر لأكرمنّه . أو أداة شرط، نحو: الحقّ إن ألفته أفلحت(٣) .

٤ ـ ما يستوي فيه الرفع والنصب، وذلك إذا وقع المشغول عنه بعد عاطف على جملة ذات وجهين، أي اسميّة، الخبر فيها جملة فعليّة، فيجوز أن يرفع مراعاة لاسميّة الجملة، والرفع مراعاة لفعليّة جملة الخبر، نحو: زيد زرته، وعمرو أكرمته (٤) .

٥ ـ رجحان الرفع، ويترجّح الرفع في غير ما مرّ من حالات، نحو: زيد أكرمته(٥).

وعلّل ذلك ابن زنجلة قائلاً: «أصل هذا الباب أن تقول: زيد ضربته . هذا حد الكلام؛لأنّك إذا شغلت (ضربت) عن زيد بضمير، تمّ الفعل والفاعل ومفعوله، وصار زيد مرفوعا بالابتداء. ويجوز أن تقول: زيداً ضربته، فتنصبه بإضمار فعل.»(٦) وعلّله ابن هشام بقوله: «الثاني ما يترجح رفعه بالابتداء، وذلك فيما لم يتقدم عليه ما يطلب الفعل وجوبا أو رجحانا، نحو: زيد ضربته وذلك لأن النصب محوج إلى التقدير ولا طالب له

---

(١) ينظر: شرح الكافية الشافية ١ / ٢٧٥ .

(٢) ينظر: شرح الكافية الشافية ١ / ٢٧٥، و الأساليب الإنشائيّة في النحو العربي ٧١ ـ ٧٢ .

(٣) ينظر: شرح الكافية الشافية ١ / ٢٧٦، وتوضيح المقاصد ٦١٥ .

(٤) ينظر: توضيح المقاصد ١ / ٦١٧، و همع الهوامع ٣ / ١٣٥.

(٥) ينظر: اللباب في علل البناء والإعراب ١ / ٤٦٧، وتوضيح المقاصد ١ / ٦١٨، وشرح شذور الذهب ٥٤٨.

(٦) حجة القراءات لابن زنجلة ٦٩٨ .

والرفع غني عنه فكان أولى لأن التقدير خلاف الأصل.»(١) وذكر أبو حيّان الأندلسيّ أنّه أكثر استعمالاً من النصب، فقال: «لأنّ (زيد ضربته) أفصح وأكثر من زيداً ضربته.»(٢) فحكمه على أنّه أكثر من النصب يحكمه الاستقراء . فمنه قول علقمة بن عبدة(٣):

قد أشهد الشَّربَ فيهم مزهرٌ رَنِمٌ   والقومُ تصرعُهم صهباءُ خُرطومُ

وقول المرقّش الأكبر(٤):

أموالُنا نقي النفوسَ بها   من كلّ ما يدني إليه الذمّْ

أمّا حكمه على أنّه أفصح من النصب؛ فلست أتّفق معه، وأرى أنّهما أسلوبان عربيّان، لهما الدرجة نفسها من الفصاحة، كثر ورودهما في القرآن الكريم، وفي اللسان العربيّ الفصيح . ولكلّ منهما معناه، ودواعي استعماله وقد نصّ سيبويه على أنّ النصب «عربيّ جَيّدٌ.»(٥) ومنه قول عبد قيس بن خفاف(٦):

وعذرةَ قد حكّت بها الحربُ بَرْكها   وألقت على كَلْبٍ حِراناً وكَلْكَلا

والمعنى: أنّ عذرة قد بركت عليها الحرب، كما تبرك الناقة على الأرض .

وقد روي (كلّ) في قول بشامة بن عمر(٧):

خزي الحياة وحربُ الصديقِ   وكلٌّ أراه طعاماً وبيلاً

بالرفع (كلٌ)، والنصب (كلّاً) .

---

(١) شرح شذور الذهب ٥٤٨ .

(٢) البحر المحيط ٣ / ٤١٣ .

(٣) المفضليات ٤٠٢ .

(٤) المفضليات ٢٤٠ .

(٥) الكتاب ١ / ١٠٤ .

(٦) المفضليات ٤٠٦ .

(٧) المفضليات ٥٩ .

فرفع المشغول عنه في مثل هذه الحال أصل عند النحاة، والنصب فرع عنه فصيح صحيح. يعدل إليه إذا اقتضى المعنى، ودعت الحاجة إليه بما يقتضيه المعنى المراد .

المبحث الأوّل

بلاغة الاشتغال

أتعرّض في هذا الفصل إلى الأثر البلاغيّ لأسلوب الاشتغال في حالتي نصب المشغول عنه ورفعه :

أولاً- في حال نصب المشغول عنه :

فهذا الأسلوب قبل أن يكون اشتغالاً كان أسلوب تقديم لما حقّه التأخير. نحو قولنا: زيداً أكرمنا لنجاحه . قال الدكتور إبراهيم مصطفى: « وأصل هذا الباب أنّك تقول: لقيت زيداً ...ولك أن تقدّم زيداً؛ لسبب ما من أغراض التقديم، فتقول: زيداً لقيت. أو: زيداً لقيته. وهذا التركيب الأخير وحده هو موضع الاشتغال»(١) ومن هنا كان لنا أن نتساءل، لِمَ لم تكتف اللغة بتقديم المعمول على عامله للتعبير عن معنى يراد بهذا التقديم؟ وما الداعي لانشغال العامل بضمير يدلّ على المعمول نفسه لينصبه؟ وباختصار: ما الفرق بين قولنا: العلمَ النافع تعلّمْ . وقولنا: العلمَ النافعَ تعلّمه؟.

ففي الجملة الأولى تقدّم المعمول على فعله عناية به، أو تخصيصاً له . فالمتكلّم إذا اعتنى بالمفعول به، أو أراد تخصيصه، لجأ إلى تقديمه على فعله، كما في الجملة السابقة: العلمَ النافع تعلّم، قال سيبويه: « كأنّهم إنّما يقدّمون الذي بيانه أهمُّ لهم وهُمْ ببيانه أَعْنَى وإن

---

(١) إحياء النحو ١٥١ .

كانا جميعاً يُهِمّانِهِم ويَعْنِيانهم .»(١)

أمّا إذا أراد الحثّ على ما يريد، والتأكيد على استحصال المعمول أكثر، فإنّه يعيد ذكره ثانياً بذكر ضميره، فيقول :العلمَ النافع تعلّمه . فالمفعول ذكر مرّتين، الأولى متقدّماً لأهمّيته في نفس المتكلّم، والثانية بذكر ضميره توكيداً له، يقول الدكتور إبراهيم مصطفى: « ولك أن تقول: زيداً رأيته . بذكر الضمير؛ زيادة في البيان .»(٢) وهذا إن دلّ على شيء، فهو يدلّ على أنّ في جملة الاشتغال توكيداً للمعنى وتقوية له، وتعزيزاً لّما كرّر ذكره . وقد نصّ ابن عاشور على أنّ أسلوب الاشتغال من وسائل التوكيد، فالمعمول يتعلّق بعامله مرّتين، مرّة بنفسه، والثانية بضميره، فهو في قوّة تكرّر الجملة، فقال عند تعرّضه لقوله تعالى :((والجانّ خلقناه))(٣): «وأكّدت جملة (والجانّ خلقناه) بصيغة الاشتغال، الّتي هي تقوية للفعل، بتقدير نظيره المحذوف، ولما فيها من الاهتمام بالإجمال، ثمّ التفصيل لمثل الغرض الّذي أكّدت به جملة (ولقد خلقنا الإنسان)»(٤)

وفي جملة الاشتغال في حالة نصب المشغول عنه تأكيد للمعنى من وجه آخر، يتجلّى في مسألة تقدير فعل عامل في المشغول عنه، إذ اختلف البصريّون والكوفيّون في ناصب المشغول عنه، فذهب البصريّون إلى أنّه معمول لفعل محذوف، يفسّره المذكور بعده، «تقول: أزيدا أخاه تضربه . أو يضربه عمرو . فينصب الأخ بفعل مضمر مفسّر بـ(تضربه). وتنصب زيدا بفعل آخر مفسّراً بالمضمر الّذي نصب الأخ؛ لأنّ المضمر الذي

---

(١) الكتاب ١ / ٣٤، وينظر: دلائل الإعجاز ١ / ٩٧ .

(٢) إحياء النحو ١٥٤ .

(٣) الحجر / ٢٧ .

(٤) التحرير والتنوير ١٤ / ٤٢، وينظر: خصائص بناء الجملة القرآنيّة ودلالتها / رسالة دكتوراه ١١١.

نصب الأخ قد فسّره الفعل الآخر . وعرف واستبان، حتّى صار كالظاهر، فهو مفسّر بما بعده ومفسّر للمضمر قبله .»(١) فالجملة بعده مفسّرة، ليس لها موضع إعرابيّ، قال ابن هشام: «فلا موضع للجملة بعده؛ لأنها مفسرة .»(٢)

وذهب الكوفيّون إلى أنّه منصوب بالفعل المذكور، فالفعل عندهم عامل في المفعول وضميره في آنٍ واحد؛ لأنّ الضمير هو الظاهر في المعنى، فيكون فائدة تسليطه على الضمير، بعد تسليطه على الظاهر المقدّم تأكيد إيقاع الفعل عليه(٣) .

ومرّ بنا ما نصّ عليه النحاة من مواضع وجب فيها نصب المشغول عنه، وهي مواضع يقع فيها الاسم بعد ما يختصّ بالفعل، كأدوات التحضيض، وأدوات الاستفهام (غير الهمزة)، وأدوات الشرط(٤)، ونصّوا على المواضع الّتي يترجّح فيها نصبه، كأن يكون الفعل طلباً، أو دالاّ على الطلب، أو أن يكون الفعل مقترناً بلام الأمر أو (لا) الناهية، أو أن يكون الاسم بعد ما غلب أن يليه الفعل، كهمزة الاستفهام، أو أن تكون جملة الاشتغال معطوفة على جملة فعليّة(٥). فهذه حالات وأحكام تؤيّد فعليّة جملة الاشتغال في حالة نصب المشغول عنه . وقد نصّ الدكتور محمود عبد السلام على أنّ جميع النحويين من بصريّين وكوفيّين متّفقون على «أنّ معنى التركيب كلّه، هو على نصب هذا الاسم، وعلى أنّ العلاقة بين الاسم والفعل هي علاقة فعليّة إمّا مباشرة، أو غير مباشرة.»(٦).

---

(١) شرح التسهيل ٢ / ١٤٧ .

(٢) شرح شذور الذهب ٥٤٦ .

(٣) ينظر: الإنصاف ٧٧ ـ ٧٨، المسألة رقم ١٢، والإعراب والتركيب بين الشكل والنسبة ٣٢٥.

(٤) ينظر: أوضح المسالك ٢/ ١٦١، وهمع الهوامع ٣ / ١٣٢ .

(٥) ينظر: أوضح المسالك ٢ / ١٦٢ ـ ١٦٨، وهمع الهوامع ٣ / ١٣٣ .

(٦) الإعراب والتركيب بين الشكل والنسبة ٢٣٥ .

وأقول: إنّ جملة الاشتغال ـ عند نصب المشغول عنه ـ فعليّة، وهي عند البصريّين جملتان، حذف الفعل من الأولى، وهو مفسّر بالمذكور بعده، فيقدّر بلفظه ومعناه، نحو: زيداً أكرمته . فالتقدير: أكرمت زيداً، أكرمته . أو بما يناسبه في المعنى، نحو: زيداً سلّمت عليه، فالتقدير: حيّيت زيداً سلّمت عليه، وزيداً ضربت أخاه، فالتقدير: أهنت زيداً ضربت أخاه⁽¹⁾. وهو حذف غير متكلّف، إذ يصرف إليه ذهن المخاطب مباشرة، فحين يقال: زيداً أكرمه . يفهم مباشرة أنّ زيداً سيقع عليه فعل الإكرام، ولا يحتاج السامع إلى إعمال ذهنه، وقسره على هذا المعنى . ويرفض الدكتور فاضل السامرّائيّ هذا التقدير، ويقول: «إنّ التقدير الّذي ذهب إليه النحاة في هذا الباب مفسد للمعنى، مفسد للجملة، فإنّ الجملة تفسد وتنحلّ بتقديرنا: أكرمت خالداً أكرمته . وسررت خالداً أحببت رجلاً يحبّه . وبنحو ذلك من التقديرات ... فتقدير الجمهور متمشّ مع الصنعة الإعرابيّة، إلاّ أنّه مفسد للمعنى، مفسد للجملة»⁽²⁾ على أنّي لست أرى بأساً في التقدير الّذي يفيد تفسيراً للمعنى قال سيبويه :»وإن شئت، قلت: زيداً ضربتُه . وإنّما نصبهُ على إضمار فعلٍ هذا يفَّسره، كأنّك قلتَ: ضربتُ زيداً ضربتُه . إلاّ أنّهم لا يُظهِرون هذا الفعلَ هنا للاستغناءِ بتفسيره، فالاسمُ ها هنا مبنيّ على هذا المضمَرِ»⁽³⁾ فالتقدير في هذا الباب متمشّ مع المعنى، يصرف إليه الذهن، دون تكلّف، أو إجهاد في الفكر . وأرفض التقدير، إذا كان متكلّفاً، لا يتّفق مع المعنى، بل يكون وبالاً عليه، فيخرج التركيب عن مراده، كما هو الحال فيما فعلوه مع صيغة التعجّب: أفعل به⁽⁴⁾. على سبيل المثال لا الحصر.

---

(١) ينظر: الكتاب ١ / ٨٣، وشرح قطر الندى ١٩٣، ومعاني النحو ٢ / ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(٢) معاني النحو ٢ / ١٠٩ ـ ١١٠ .

(٣) الكتاب ١ / ٨٠ .

(٤) إذ ذهبوا إلى أنّ (أفعِل) فعل ماض، جاء على صيغة الأمر؛ لإنشاء التعجّب، والباء حرف جرّ

وهي عند الكوفيّين جملة واحدة، فعلها المذكور نصب الاسم وضميره معاً؛ لأنّهما في المعنى واحد . فالإكرام إذ وقع على الهاء واقع على (زيد)؛ لأنّها تعنيه وتشير إليه . وهو مردود؛ لأنّه ممكن في صورة واحدة من صور الاشتغال، ففي مثل قولنا: زيداً مررت به. لا يجوز أن ينصب الفعل (مرّ) الاسم المتقدّم، ولا يصحّ المعنى في مثل قولنا: خالداً خطت قميصه. ولا في قولنا: خالداً لقيت أخاه . فإنّ اللقاء لم يحصل مع خالد، بل مع أخيه، فلا يجوز أن ينصبه(١) .

وأتساءل، وأقول: إن كان المشغول عنه منصوباً بالفعل المحذوف على ما ذهب إليه البصريّون، فلمَ لم يذكر منصوصاً عليه؟ ولَمَ أوجبوا حذفه؟ فلو أردنا توكيد الجملة، فقلنا: أكرم زيداً . أكرمه . لجاز هذا على أن تكون الجملة الثانية مؤكّدة للجملة الأولى. فلمَ هذا العزوف عن ذكر الفعل، ولَمَ حذف وبقي المفعول منصوباً؟

من الواضح أنّ المتكلّم يسوق كلامه بحسب ما يرمي إليه من معنى، فهو إن شغله فعل الإكرام وإسناده إلى فاعله، وكان مدار اهتمامه، ومركز المعنى الّذي يريد إبلاغه للمتلقّي، ابتدأ بالفعل: أكرم زيداً . وإن أراد توكيد هذا المعنى كرّر الجملة بذكر المفعول صراحة (أكرم زيداً)، أو بإضماره: أكرمه. وإن كان المفعول هو المركز للمعنى الّذي يريد إبلاغه، ومحطّ اهتمامه؛ قدّمه؛ لتكون الجملة: زيداً أكرم. وإن أراد تأكيد تعلّق المفعول بالفعل، أعاده بذكر ضميره متّصلاً بالفعل؛ لتكون الجملة: زيداً أكرمه، وهذا ما نبّه عليه ابن عاشور إذ نصّ على أنّ وجه التوكيد في الاشتغال، هو أنّ المفعول يتعلّق

زائد، وما قام مقام الهاء فاعل لهذا الفعل . ينظر: الأصول في النحو ١ / ١٠١، واللمع ١٣٧. وهو تقدير يحوّل الأسلوب الإنشائيّ الانفعالي إلى أسلوب خبري، بعيد عمّا أراده المتكلّم .

(١) ينظر: همع الهوامع ٢ / ١١٤، ومعاني النحو ٢ / ١٠٩ .

«بفعله مرّتين: مرّة بنفسه، ومرّة بضميره . فإنّ الاشتغال في قوّة تكرّر الجملة.»(١) ففي الجملة السابقة يكون الحديث عن المسند إليه (وهو الفاعل المستتر). وأرى أنّ المفعول في أسلوب الاشتغال كالمسند إليه من حيث كونه مداراً للحديث (المعنى) في الجملة، لا من حيث دوره في التركيب الجمليّ . فالجملة الّتي يكون فيها المشغول عنه منصوباً يكون فيها مدار الحديث عن أمرين معاً، المسند إليه، والمشغول عنه . إذ اكتسب المفعول به ذلك بتقديمه وابتداء الكلام به أوّلاً، وتكراره بذكر ضميره ثانياً . هذا فضلاً عن معنى مراد آخر هو تأكيد ارتباطه بمتعلّقه، الّذي هو الفعل . ولبيان ذلك أعرض إلى قول بشامة بن الغدير(٢):

وعـذرةَ قد حكّت بها الحـربُ بركَها

فقد ساق الشاعر جملة الاشتغال على طريقة الاستعارة، فالمعنى أنّ عذرة قد بركت عليها الحرب، كما تبرك الناقة على الأرض(٣). فالمتحدّث عنه أمران (عذرة) لبيان حالها، وما آلت إليه من توالي الحروب عليها . والحرب إذ توالت على هذه القبيلة، حتّى غدت كالناقة، إذ بركت على أرض . وفي نصب المشغول عنه تأكيد لارتباطه بمتعلّقة الّذي جاء على سبيل الاستعارة المكنيّة تقوية لها، فضلاً عن ابتداء الجملة به، وإعادة ذكره بذكر ضميره .

ولحذف الفعل من الجملة دلالة تختلف عن دلالتها عند ذكره، وأذكر ما نصّ عليه الدكتور فاضل السامرائي قائلاً: « ولكنّك قدّمت (زيداً) في قولك: (زيداً ضربته)؛

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧ / ١٦ .

(٢) المفضليات ٤٠٦ .

(٣) وقد عبّر عن معنى الفعل (برك) بطريق الكناية، فقوله (حكّت بها الحرب برْكها): بركت عليها .

للاهتمام به، والحديث عنه، غير أنّه حديث لا يرقى إلى درجة العمدة ... وبهذا نستطيع أن نقول: إنّ الاشتغال مرحلة دون المبتدأ، وفوق المفعول، إذ هو متحدّث عنه من جهة، لكنّه لا يرقى إلى درجة المبتدأ، فيكون معنى الاشتغال على هذا أنّه إنّما جيء بالاسم المنصوب المتقدّم؛ لإرادة الحديث عنه، ثمّ شغل عنه بالحديث عن المسند إليه، فهو أسلوب على صورة المبتدأ والخبر .»⁽¹⁾ وأتّفق معه في أنّ تقديم المفعول؛ لقصد الحديث عنه، وأقول: إنّه متحدّث عنه من جهة المعنى، لا من جهة التركيب النحويّ للجملة، فهو ـ معنى ـ متحدّث عنه كالعمدة، وهو ـ نحويّاً ـ ليس كالمسند إليه، الذي لا تستقيم الجملة بدونه . وقد نصّ الكفويّ على أنّ «كون الفاعل عمدة والمفعول فضلة، إنّما هو بالنظر إلى حصول أصل الكلام، لا بالنظر إلى أداء المعنى المقصود به.»⁽²⁾

ويقول الدكتور إبراهيم مصطفى: «وإذا أردت أنّ هذا الاسم إنّما سيق تتمّة للحديث، وبياناً له، لا متحدّثاً عنه، فالحكم النصب، تقول: زيداً رأيته. وقد تقدّم الاسم عن موضعه، وخولف به ترتيبه؛ لغرض أو لمعنى قصد إليه المتكلّم، من معاني التقديم.»⁽³⁾ فهو يرى أنّ المشغول عنه عند نصبه، يكون مفعولاً به، غير عمدة . فهو من حيث التركيب النحويّ للجملة لا يمكن أن يكون مسنداً إليه (متحدّثاً عنه)، بل هو مكمّل للمعنى المراد من الحديث، مبيّن له، وهذا لا ينفي أن يكون موضعاً للحديث والإخبار من الجانب المعنويّ، لا النحويّ . فـ(زيداً) في المثال السابق مفعول به، فالضارب المتحدّث، وهو التاء في (ضربت)، وهو المسند إليه . وفي معنى الجملة حديث عن زيد أيضاً؛ لأنّه مضروب من قبل المتحدّث.

---

(1) معاني النحو ٢ / ١١٣ .

(2) الكليات ١٠٣٤ .

(3) إحياء النحو ١٥٣ – ١٥٤ .

ذكر النحاة أنّ الفعل المحذوف يكون واحداً من ثلاث حالات، فهو إمّا أن يقدّر موافقاً للمحذوف لفظاً ومعنى، نحو: الضعيف ساعدته . أو معنى فقط، كقولنا: محمّداً مررت به. أو لازم للمذكور من غير موافقة له لفظاً ولا معنى، نحو: خالداً ضربت ابنه. فالتقدير أهنت خالداً ضربت ابنه(١) .

فما مرّ ذكره يتعلّق بالصورة الأولى والثانية من صور الاشتغال في حالة النصب. أمّا الصورة الثالثة، من نحو: خالداً ضربت ابنه . وسعيداً أكرمت أخاه . فنحن نرى ضمير المشغول عنه متكّرراً باتّصاله بمفعول الفعل المشغول . وهو معنى يختلف عن قولنا: ضربت ابن خالد . أو: أكرمت أخا سعيد . فما يهمّ المتكلّم في هذه الجملة هو الإخبار عن فعل الإكرام، مسنداً إلى فاعله، متعلّقا بمفعوله، فالحدث هو الأهمّ لتقدّمه . وعند قولنا: ابن خالد ضربته، وأخا سعيد أكرمته، تقدّم المفعول للاهتمام به، وكرّر ذكره ضميراً متّصلاً بفعله؛ لتقوية التعلّق، فيكون في الإخبار عنه إكمال لغرض المتحدّث في إيصال المعنى الّذي يريده إلى المتلقّي.

وإن كان الاهتمام منصبّاً على المضاف إليه، تقدّم؛ لتكون الجملة: خالداً ضربت ابنه، وسعيداً أكرمت أخاه، وكأنّ المتكلّم بتقديمه المضاف إليه يريد الإخبار عنه، مبيّناً أنّ الحدث أثر فيه . فالمفعول، وإن وقع عليه الفعل لا يهمّه بقدر ما يهمّه من ارتبط به وتعلّق به، وهو المضاف إليه، فقدّمه، فكأنّ الحديث عن اثنين، المضاف إليه المتقدّم مشغولاً عنه، والمسند إليه في الجملة، وهو فاعل الفعل المشغول . فالحدث وقع منه على المفعول، مؤثراً في المشغول عنه تأثيراً استحقّ أن يكون مدار حديث عنه، فتقدّم، لمنزلته في المعنى المراد . وقد التفت النحاة إلى تأثير الفعل ـ في مثل هذا التركيب ـ في المشغول عنه، فقدّروا له فعلاً

---

(١) ينظر: مغني اللبيب ١ / ٥٨٤، ودليل السالك ١ / ٣٥٦ .

يناسبه، فقدّروا فعل الإهانة لمن وقع فعل الضرب على ابنه، فقالوا: إنّ التقدير: أهنت زيداً ضربت ابنه . في قولهم: زيداً ضربت ابنه . قال العكبريّ :»والتقدير: أهنت زيداً، ضربت أخاه؛ لأنَّك لم تضرب زيداً لكنْ أهنته بضرب مَنْ هو مِنْ سببه»(١)

ويرى الدكتور فاضل السامرّائيّ أنّ الصورة الأولى للاشتغال هي الّتي ينطبق عليها مفهومه، ولا ينطبق على غيرها من صوره، فيقول: «وحقيقة الأمر فيما نرى أنّه ليس ثمّة اشتغال، ولا مشغول عنه بهذا المعنى، وإنّما هو أسلوب خاصّ يؤدّي غرضاً معيّناً في اللغة، وممّا يدلّ على ذلك قولهم: محمّداً سلّمت عليه وخالداً أكرمت أخاه . وسعيداً انطلقت مع أخيه . فأيّ اشتغال في هذا ؟ وهل يمكن تسليط الفعل على الاسم المنصوب المتقدّم، فإنّ الفعل قد يكون لازماً كما نرى»(٢) على أنّ النحويّين لم يشترطوا في هذا الأسلوب أن يتسلّط عليه الفعل نفسه، بل ما نصّوا عليه هو أنّ المشغول (الفعل) «لو سلّط عليه هو، أو مناسبه لنصبه»(٣) فما يسلّط عليه، يجوز أن يكون الفعل المذكور نفسه، ويجوز أن يكون مناسبه، إذا كان الفعل لازماً، أو متعدياً إلى مفعول غير المشغول عنه .

ثانياً -في حال رفع المشغول عنه:

فسّر هذه الحال سيبويه، إذ قال: «فإذا بنيتَ الفعلَ على الاسم، قلتَ: زيدٌ ضربتُه. فلزمتُه الهاء، وإنّما تريد بقولك: مبنيّ عليه الفعل، أنّه في موضع منطلقٍ، إذا قلتَ: عبدُ الله منطلقٌ. فهو في موضع هذا الّذي بني على الأول، وارتَفع به، فإنّما قلت: عبدُ الله، فنسبته له، ثمّ بنيتَ عليه الفعلَ . ورفعتهَ بالابتداء ... وإنّما حَسُنَ أن يُبْنَى الفعلُ على الاسم،

---

(١) اللباب في علل البناء والإعراب ١ / ٤٦٧ .

(٢) معاني النحو ٢ / ١١٠ .

(٣) شرح الكافية ١ / ١٧٥ ، وينظر: معاني النحو ٢ / ١٠٨ .

حيث كان مُعْمَلاً في المُضْمَرِ وشَغَلْتَه به . ولولا ذلك لم يحسُنْ؛ لأنّك لم تَشغَلْه بشيء.»(١) ونصّ سيبويه واضح على أنّ هذا الأسلوب يعدّ جملة اسميّة قائمة على المبتدأ (المشغول عنه)، وخبره الجملة الفعليّة (جملة الفعل المشغول، والضمير المشغول به). وقد ذكر هذا الدكتور إبراهيم مصطفى، في قوله :»أنّك إذا أردت بالاسم المتقدّم على الفعل في مثل: (زيد رأيته) أن يكون متحدّثاً عنه مسنداً إليه، فليس إلاّ الرفع، والاسم آت في موضعه من الكلام»(٢) وقال الدكتور فاضل السامرّائيّ: « من الواضح أنّ المتحدّث عنه في نحو قولك: محمّد أكرمته . هو محمّد. وفي: محمّداً أكرمته . هو المتكلّم ....»(٣) وفسّر إعادة ذكر ضميره متّصلاً بالفعل المشغول، قائلاً: « إنّ المشغول عنه على صورة المبتدأ من حيث إرادة الحديث عنه؛ ولذا لا بدّ له في الجملة المتأخّرة عنه من ضمير يربطها بالاسم المتقدّم، كالمبتدأ الّذي لا بدّ له من رابط يربط جملة الخبر به؛ ليصحّ الحديث عنه .»(٤) وممّا يؤيّد ذلك أنّ المشغول عنه في حالة رفعه يجوز أن تدخل عليه النواسخ الّتي تدخل على المبتدأ، من ذلك قول مالك بن عجلان(٥):

إنّ سميراً أرى عشيرته قد حدبوا دونه وقد أنفوا

فقبل دخول (إنّ) كانت الجملة اسميّة متكوّنة من المبتدأ (سمير)، وخبره الجملة الفعليّة (أرى عشيرته). وهي متكوّنة من الفعل المضارع (أرى)، الذي اشتغل عن المبتدأ بما يلابسه (عشيرته).

---

(١) الكتاب ١ / ٨٠ .

(٢) إحياء النحو ١٥٣ .

(٣) معاني النحو ٢ / ١١٣ .

(٤) معاني النحو٢ / ١١٤ .

(٥) جمهرة أشعار العرب في الجاهليّة والإسلام ١٩١ .

وذهب الدكتور محمود عبد السلام إلى أنّ رفع المشغول عنه «في بعض تراكيب الاشتغال مسألة شكليّة بحتة؛ لأنّ المعنى يبقى على المفعوليّة، تماما كما يرفع المفعول به لنيابته عن الفاعل، لكنّه لا يزال مفعولاً به، أو ينصب الخبر في باب (كان) لكنّه لا يزال خبراً، أو ينصب الاسم في باب (إنّ)، لكنّه لا يزال عمدة . فالشكل قد يتغيّر، لكنّ النسبة بين العناصر تبقى كما هي.»⁽¹⁾ ولست أتّفق معه في هذا، وأرى أنّ معنى الجملة عند رفع المشغول عنه يختلف عنه عند نصبه؛ فالضمّة علم الإسناد⁽²⁾، بها تتحوّل الجملة من جملة فعليّة إلى جملة اسميّة، وتتحوّل علاقة الاسم بالفعل من علاقة تعلّق فعليّ، إلى علاقة إسناد خبريّ، فيكون المشغول عنه مسنداً إليه، مداراً للحديث في الجملة، فإذا «قلت: زيد ضربته . فإنّما أردت أن تخبر عن زيد .»⁽³⁾ قال الآلوسيّ: «فالأحسن تقديم الأصل عناية به، ومن ثَمّ قالوا: زيد ضربته . فقدّموا المفعول عناية به، حيث أنّ الغرض ليس ذكر الفاعل، وإنّما هو ذكر المفعول، ثمّ لم يقنعوا بذلك حيث أزالوه عن لفظ الفضلة، وجعلوه ربَّ الجملة لفظا، فرفعوه بالابتداء، وصار ضربته ذيلا له وفضلة ملحقة به.»⁽⁴⁾ فالمشغول عنه هو المبتدأ والجملة الفعليّة خبر عنه، فهي تمثّل المسند، وهي تتكوّن من الفاعل (التاء في ضربته)، وهو المسند إليه، والفعل (ضرب)، وهو المسند، فالجملة في هذه الحال جملة كبرى، اسميّة خبرها جملة فعليّة صغرى⁽⁵⁾، وهو أمر يختلف عنه في حال نصب المشغول عنه، إذ هي جملتان فعليّتان صغريان، الأولى محذوفة بركنيها؛ ليتسنّى

---

(١) الإعراب التركيب بين الشكل والنسبة ٢٣٦ .

(٢) ينظر: إحياء النحو ٥٣ .

(٣) معاني النحو ٢ / ١١٣ .

(٤) روح المعاني ١٣ / ٢١٣ .

(٥) ينظر: معاني النحو ٢ / ١١٤ .

الابتداء بالمفعول، والثانية مذكورة بركنيها؛ مفسّرة للمحذوفة .

وقد ذكر عبد القاهر الجرجاني أنّه لا يؤتى بالاسم معرّى من العوامل إلاّ لحديث قد نوي إسناده إليه، فإذا قلت: (عبد الله)، فقد أشعرت قلب السامع «أنّك قد أردت الحديث عنه، فإذا جئت بالحديث، فقلت مثلاً: قام . أو قلت: خرج . أو قلت: قدم . فقد علم ما جئت به، وقد وطأت له، وقدّمت الإعلام فيه، فدخل على القلب دخول المأنوس به، وقبله قبول المتهيئ له، المطمئنّ إليه . وذلك ـ لا محالة ـ أشدّ لثبوته، وأنفى للشبهة، وأنفى للشكّ وأدخل في التحقيق؛ وجملة الأمر أنّه ليس إعلامك الشيء بغتة مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه، والتقدمة له؛ لأنّ ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام .»⁽١⁾ وهذا هو عينه ما يحصل في أسلوب الاشتغال في حال رفع المشغول عنه، فرفعه يعني تعرّيه من عوامل النصب والجرّ، في مثل قولنا: زيد أكرمته، أو مررت به، أو أكرمت أباه . إذ وقع موقع الابتداء، ليصير مسنداً إليه، وفيه إشعار للسامع أنّ حديثاً سيخبر به عنه، لتتهيّأ نفسه إلى الإصغاء إليه، فإذا قيل: أكرمته، أو مررت به، أو أكرمت أباه . علم ما جيء به؛ فيتقبّله السامع تقبّل المتهيّئ له . فينطبق عليه ما جاء في نصّ عبد القاهر هذا . وأستدلّ على هذا بقول المرقّش الأكبر⁽٢⁾:

أموالنا نقي النفوس بها من كلّ ما يدني إليه الذمّ

فالحديث ـ كما هو واضح ـ عن الأموال، لا عن النفوس، فهم يستخدمونها وسيلة لوقاية النفوس ممّا يؤدّي بها إلى الذمّ، فهي ليست عندهم، كما هي عند الآخرين، همّهم أن يجمعوها، ويستحصلوها، وإنّما هي عندهم لغاية أسمى، وهمّة أكبر، هي ما ذكر .

وقد عرض الباحث عبد الرحمن حسن الميداني للتفريق بين تقديم المسند إليه وتأخيره،

---

(١) دلائل الإعجاز ١٣٣، وينظر: دراسات في البلاغة العربية: عبد العاطي غريب ٧٢ .

(٢) المفضليات ٢٤٠

في حال كون المسند فعلاً، ففرّق بين قولهم: نزل المطر، وينزل المطر، وقولهم: المطر نزل، والمطر ينزل. فذكر أنّهما يشتملان على عاملين غير موجودين في الجملتين الأوليين، هما:

ـ العامل الأوّل: تقديم لفظ المسند إليه (المطر)، المشعر بأنّه محلّ اهتمام المتكلّم، أو المخاطب، إذ الأصل فيه التأخير، ومعلوم أنّ النفس تتّجه دواماً للبدء بما هو محلّ اهتمامها.

ـ العامل الثاني: شعور الناطق العربيّ القحّ أنّ في فعل (نزل) المتأخّر عن (المطر)، وفي الفعل (ينزل) أيضاً ضميراً مستتراً يعود على المطر، فهو في عبارتيه يلاحظ أنّه يسند النزول إلى المطر مرّتين، ففي الأولى يسنده إلى لفظ (المطر)، وفي الثانية يسنده إلى ضميره المستتر .»(١) وقريب منه ما يقال في أسلوب الاشتغال إذا رفع المشغول عنه، ففي قولنا: زيد أكرمته، إخبار بإكرام الفاعل لـ (زيد) مرّتين، الأولى بصفته عمدة مسنداً إليه، ومدار الحديث، والثانية تعلّق هذا الإكرام إليه بصفته مفعولاً وقع عليه هذا الإكرام من قبل متحدّث عنه، هو فاعل الإكرام . فهو يذكر أوّلاً مبتدأ، ثمّ يعاد ذكره بصفته من مكمّلات الجملة الّتي لا غنى لها عنها .

* * *

---

(١) البلاغة العربيّة أسسها وعلومها وفنونها ٣٦٢ .

المبحث الثاني

أغراض الاشتغال في القرآن الكريم

وفي هذا الموضع أحاول دراسة نماذج ممّا ورد في القرآن الكريم من مواضع، سيقت بأسلوب الاشتغال؛ للتعرّف على الأغراض الدلاليّة لهذا الأسلوب في هذا النصّ البديع، مبيَّنة كالآتي:

أوّلاً ـ التوكيد:

وممّا ورد من ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ (٢٧)﴾ الحجر: ٢٧.

عطفت جملة الاشتغال على الجملة الفعليّة (ولقد خلقنا الإنسان)(١)، وهي جملة مؤكّدة بـ(لقد). وقد ذكر ابن عاشور أنّ الجملة المعطوفة مؤكّدة بصيغة الاشتغال، ففيها تقوية للفعل بتقدير نظيره، بالإجمال، ثمّ التفصيل، لمثل الغرض الّذي أكّدت به جملة (ولقد خلقنا الإنسان)، وفي هذا العطف «إدماج وتمهيد إلى بيان نشأة العداوة بين آدم وجند إبليس.»(٢) وقد عرض الدكتور فاضل السامرّائيّ لهذه الآية، مبيّناً أنّ الكلام فيها عن الله تعالى؛ ولذلك جاءت كلمة (الجانّ) منصوبة على الاشتغال، فقد جاءت في سياق آيات من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ (٢٦) وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ (٢٧) وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ

---

(١) قال العكبري: «قوله تعالى: (والجانّ) منصوب بفعل محذوف؛ ليشاكل المعطوف عليه. لو قرئ بالرفع، لجاز.» التبيان في إعراب القرآن ٢ / ٧٨٠ ـ ٧٨١.

(٢) التحرير والتنوير ١٤ / ٤٢.

مَّسۡنُونٖ ﴿٢٨﴾ ﴾ الحجر: ٢٦ ـ ٢٨.

ومّما جاء من ذلك، وفيه معنى التوكيد، قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ ﴾ الذاريات:٤٧ ـ ٥٠

ذكر ابن عاشور أنّ الغرض من تقديم السماء على عامله هو الاهتمام به، وقال: « ثم بسلوك طريقة الاشتغال زاده تقوية ليتعلق المفعول بفعله مرتين: مرة بنفسه ومرة بضميره فإن الاشتغال في قوة تكرر الجملة . وزيد تأكيده بالتذييل بقوله (وإنا لموسعون).»⁽¹⁾

وبالأسلوب نفسه جاءت الجملة بعدها (والأرض فرشناها)⁽²⁾. وفي ذكر خلق السماء والأرض بيان لعظمته تعالى⁽³⁾. لقد وردت هذه الآيات في تعظيمه تعالى، وبيان قدرته، عزّ وجلّ، قبل سياق الأمر والحثّ على الفرار إليه تعالى، فالله ـ عزّ وجلّ ـ « فلما دعا العباد إلى النظر إلى آياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه، أي: الفرار مّما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً؛ فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى الذكر. فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الدين كله، وزال عنه المرهوب، وحصل له غاية المراد والمطلوب .»(٤)

ومثل هذا الأسلوب جاء في قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴿١٩﴾ ﴾ الحجر: ١٩

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧ / ١٦ .

(٢) ينظر: زاد المسير ٨ / ٤١، و البحر المحيط ٨ / ١٤٠، وفتح القدير ٥ / ٩١ .

(٣) ينظر: التفسير الكبير ٢٨ / ١٩٦ .

(٤) تيسير الكريم الرحمن ١ / ٨١٢ .

لقد عرض الدكتور فاضل السامرّائيّ لهذه الآية، مستدلاّ بها على أنّ الحديث في حالة نصب المشغول عنه يكون عن الفاعل الّذي أسند إليه الفعل المشغول، عارضاً للسياق الّذي وردت فيه هذه الآية، فقد جاءت ضمن سياق يذكر فيه قدرة الخالق، وآيات على ذلك، في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ (٢٠) ﴾ الحجر:١٦ ـ ٢٠ وقال: « فالكلام إنّما هو على الله الّذي جعل في السماء بروجاً، وزيّنها، ومدّ الأرض وألقى فيها رواسي، وأنبت فيها من كلّ شيء، وجعل فيها المعايش. فالكلام، كما ترى على الله، لا على الأرض، ولكن قدّم الأرض للاهتمام بها من بين ما ذكر، والحديث عنها من بين ما عدّد، فقل: (والأرض مددناها ....) فإنّه، وإن كان الكلام في الأصل يدور على الله وقدرته، خصّ الأرض بالاهتمام، فقدّمها، والكلام فيها قبل وبعد على الله تعالى. ولو رفع (الأرض)، لكان الحديث يدور عنها، والإسناد إليها والسياق غير ذلك.»[1]

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) ﴾ ق:٦ ـ ٧.

فوردت الجملة (والأرض مددناها) في سياق الأمر بالتفكرّ والنظر في آيات الله تعالى؛ تدليلاً على قدرته، عزّ وجلّ. فالكلام في بيان قدرته تعالى، من خلال الكلام في آياته،

---

[1] (١) معاني النحو ٢ / ١١٥ . وقد نصّ أبو السعود على أنّ هذه الآية لم تقرأ بالرفع؛ «لرجحان النصب؛ للعطف على الجملة الفعلية، أعني قوله تعالى: ((ولقد جعلنا ...))الخ، وليوافق ما بعده، أعني قوله تعالى ((وألقينا فيها رواسي)) » إرشاد العقل السليم ٥ / ٧١ .

فالمشغول عنه موضع اهتمام، بصفته متحدّثاً عنه، بحديث يدلّ على قدرة الخالق، فهو مدار الحديث في اًصل الكلام . ففي الكلام متحدّث عنه هو الأصل الّذي سيق فيه الكلام، وهو هنا الله تبارك وتعالى، وفيه أيضاً متحدّث عنه فرع، يفيد غرضاً ومعنى يخصّ ما كان أصلاً في الحديث عنه، وهو في جملة الاشتغال الأرض، في معرض بيان قدرة الخالق عزّ وجلّ . ففي الحديث عنها فوائد، هي:

١ـ الإخبار عن الأرض بأنّها مبسوطة(١) .

٢ـ بيان عظيم قدرة من خلقها وبسطها، ومن صنعه الآيات الّتي ذكرت في سياق الآيات الكريمات.

٣ ـ «تذكير لمنكري البعث، وإيقاظ لهم عن سنة الغفلة، وبيان لإمكان ذلك وعدم امتناعه؛ فإن القادر على مثل هذه الأمور يقدر عليه .»(٢)

٤ ـ تنبيه على نعمه تعال على عباده وخلقه(٣) .

وقال تعالى:﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ القمر: ٤٩

ذكر ابن هشام أنّ النصب واجب في الآية؛ لأنّ الفعل يلتبس عند الرفع بالصفة، وقال: «وإنما لم يتوهم ذلك مع النصب؛ لأنّ الصفة لا تعمل في الموصوف . ومالا يعمل لا يفسّر عاملا، ومن ثَمّ وجب الرفع، إن كان الفعل صفة»(٤) ونصّ ابن عاشور على أنّ «تقديمه على (خلقناه)؛ ليتأكد مدلوله بذكر اسمه الظاهر ابتداء، وذكر ضميره ثانيا. وذلك هو الذي يقتضي العدول إلى الاشتغال في فصيح الكلام العربي، فيحصل توكيد

---

(١) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٢ / ٢٠٠، وروح المعاني ٢٦ / ١٧٦ .

(٢) فتح القدير ٥ / ٧٢ .

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ١٢ .

(٤) أوضح المسالك ٢ / ١٦٩، وينظر: همع الهوامع ٣ / ١٣٤ .

للمفعول، بعد أن حصل تحقيق نسبة الفعل إلى فاعله، بتحقيق حرف (إنّ) المفيد لتوكيد الخبر، وليتّصل قوله: (بقدر) بالعامل فيه، وهو (خلقناه)؛ لئلاّ يلتبس بالنعت لشيء، لو قيل: إنّا خلقنا كلّ شيء بقدر فيظن أن المراد: أنا خلقنا كل شيء مقدر فيبقى السامع منتظرا لخبر (إنّ).»⁽¹⁾ فقد ذكر غرضين من تقديم المفعول، هما:

١ ـ توكيد مدلول الجملة .

٢ ـ التنصيص على أنّ الجارّ والمجرور (بقدر) خبر (إنّ)، لا صفة لـ(كلّ). فيدفع توهّم ذلك، فلا ينتظر السامع خبر (إنّ) .

فالمعنى: «أنّ كلّ شيء من الأشياء خلقه الله سبحانه، ملتبسا بقدر قدره، وقضاء قضاه، سبق في علمه، مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه»⁽²⁾

وممّا يدخل في هذا الباب، ما جاء من هذا الأسلوب في سياق الدلالة على العموم لتأكيده، فقد ورد المشغول عنه كلمة (كلّ) مضافة إلى نكرة، ومن المعلوم أنّها في هذه الحال، تفيد عموم الأفراد، فتكون تأسيساً، فيجب في ضميرها مراعاة معناها(٣) . ورد ذلك في قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾

الإسراء: ١٢ ـ ١٣

« ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة أنّه جعل الليل والنهار آيتين، أي: علامتين

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧ / ٢١٩ .

(٢) فتح القدير ٥ / ١٢٩ .

(٣) ينظر: الكليات ٧٤٣ .

دالتين على أنّه الرب المستحق أن يعبد وحده، ولا يشرك معه غيره .»⁽¹⁾ وجاءت جملة الاشتغال (وكلّ شيء فصّلناه تفصيلاً) مذيّلة لها، عطفت على جملة فعليّة؛ لذا رجّح النحويّون النصب في المشغول عنه⁽²⁾. ومعنى (كلّ شيء): كلّ ما «تفتقرون إليه في معاشكم ومعادكم سوى ما ذكر من جعل الليل والنهار آيتين وما يتبعه من المنافع الدينية والدنيوية.»⁽³⁾ والغرض من هذا بيان تفصيل الله تعالى لعباده، كبيانه لهم، كلّ ما يحتاجون إليه في أمر معاشهم ومعادهم؛ فتتميّز عندهم الأشياء، ويتبيّن لهم الحقّ من الباطل⁽⁴⁾، فيشكروا الله تعالى على ما أنعم عليهم من نعمه، ويخلصوا له العبادة وحده، لا شريك له⁽⁵⁾.

وتعطف على هذه الجملة، جملة أخرى جاءت أيضاً بطريقة الاشتغال، وهي قوله تعالى: (وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه) أي: «عمله وما قدّر له، كأنّه طير إليه من عشّ الغيب، ووكر القدر؛ لما كانوا يتيمّنون ويتشاءمون بسنوح الطائر، وبروحه، استعير لما هو سبب الخير والشر من قدر الله تعالى وعمل العبد»⁽⁶⁾ فكلّ عملِه، وكلّ ما قضي عليه من خير أو شرّ، لازمه، لا يفارقه، وهو مصيبه لا محالة . قال الطبريّ مفسّراً: «وكلّ إنسان ألزمناه ما قضى له أنّه عامله، وهو صائر إليه من شقاء أو سعادة، بعمله في عنقه لا يفارقه.»⁽⁷⁾

---

(1) أضواء البيان ٣/ ٥٥ .

(2) ينظر: روح المعاني ١٥/ ٣١ .

(3) روح المعاني ١٥/ ٣١ .

(4) ينظر: تيسير الكريم الرحمن ٤٥٤ .

(5) ينظر: جامع البيان ١٥/ ٤٩ .

(6) أنوار التنزيل ٣/ ، ٤٣٥، وينظر: تفسير الجلالين ٣٦٧.

(7) جامع البيان ١٥/ ٥٠ .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ يس: ١٢

وقال: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ ﴾ النبأ: ٢٩

جاءت جملة الاشتغال (وكلّ شيء أحصيناه) في الآيتين؛ لتدلّ على إحصاء كلّ شيء، وكتابته، فهو تعالى لا يعزب عنه شيء إلاّ وأحاط به علماً . قال ابن كثير: « وقد علمنا أعمال العباد كلهم، وكتبناها عليهم وسنجزيهم على ذلك، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر . »⁽¹⁾

كما جاءت كلمة (كلّ) نكرة منوّنة، في سياق الاشتغال في قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ ﴾ الفرقان: ٣٩

والمعنى: « وكلّ هذه الأمم التي أهلكناها التي سميناها لكم أو لم نسمها ... مثلنا له الأمثال، ونبّهناها على حججنا عليها، وأعذرنا إليها بالعبر والمواعظ، فلم نهلك أمة إلا بعد الإبلاغ إليهم في المعذرة ....وكل هؤلاء الذين ذكرنا لكم أمرهم، استأصلناهم، فدمّرناهم بالعذاب إبادة، وأهلكناهم جميعا» ⁽²⁾

فـ (كلاّ) الأولى منصوبة بالاشتغال، بفعل يفسّره المذكور، أي: أنذرنا؛ "لأنّ ضرب الأمثال أعظم الإنذار؛ فجاز أن يكون تفسيرا لـ(أنذرنا) ."⁽³⁾ أو: ذكّرنا؛ «لأنّ ضرب الأمثال تذكير ووعظ»⁽⁴⁾ والثانية منصوبة بالفعل (تبّرنا)، فهو لم يشغل عنه بضمير⁽⁵⁾.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٥٩٤ .

(٢) جامع البيان ١٩ / ١٥ .

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢ / ٥٥٢ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٣ / ٣٥ .

(٥) ينظر: مشكل إعراب القرآن ٢ / ٥٥٢، والتبيان في إعراب القرآن ٢ / ٩٨٦، والبحر المحيط٦ / ٤٥٨، وفتح القدير ٤ / ٧٧ .

وذكر ابن عاشور على أنّ في تقديمها تشويقاً « إلى معرفة ما سيخبر به عنها »(١) و(كلّ) من ألفاظ العموم، وفي تقديمها على معمولها تأكيد هذا المعنى، فما من قرية أهلكت إلاّ بعد تذكيرها وإنذارها .

ثانياً ـ القصر والتخصيص :

يرى ابن عاشور أنّ التخصيص من أكثر المعاني الّتي يفيدها الاشتغال، فقال: « غير أنّ الغالب أن يكون التقديم مع صيغة الاشتغال للتخصيص؛ إذ العرب لا تقدم المفعول غالبا إلا لذلك. »(٢) ومن المعلوم أنّ هذا الغرض من أهمّ أغراض التقديم(٣) .

ورد التقديم لغرض القصر والتخصيص، مع الدلالة على معنى تعظيم المقصور عليه، والاهتمام به، في قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ (٤٠) ﴾ البقرة: ٤٠ وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ (٥١) ﴾ النحل: ٥١.

نصّ الزمخشريّ على أنّ غرض التقديم في قوله تعالى (فإيّاي فارهبون) هو الاختصاص(٤). وعلّق ابن عاشور على مذهبه، موضّحاً، في قوله: «ووجهه عندي أن تقديم المفعول يحتمل الاختصاص، إلا أنّ الأصل فيه أن يدلّ على الاختصاص، إلاّ إذا أقامت القرينة على التقوّي، فإذا كان مع التقديم اشتغال الفعل بضمير المقدم، نحو: زيدا ضربته.

---

(١) التحرير والتنوير ١٩ / ٢٧ .

(٢) التحرير والتنوير ١ / ٤٥٥ .

(٣) وهو إمّا أن يكون متعيّناً، وذلك إذا كانت الجملة منفيّة، والمسند إليه مبتدأ، خبره جملة فعليّة، أو يكون مفيداً للتخصيص مع تقوية الحكم، إذا كانت الجملة مثبتة، والمسند إليه مبتدأ، خبره جملة فعليّة . ينظر: البلاغة العالية ٨٧ .

(٤) ينظر: الكشاف ١/ ١٩، و البحر المحيط ٧ / ١٥٣، وإرشاد العقل السليم ١ / ٩٥، والتحرير والتنوير ١ / ٤٥٥ .

كان الاختصاص أوكد، أي: كان احتمال التقوّي أضعف؛ وذلك لأنّ إسناد الفعل إلى الضمير، بعد إسناده إلى الظاهر المتقدّم، يفيد التقوّي، فتعين أنّ تقديم المفعول للاختصاص دون التقوّي، إذ التقوّي قد حصل بإسناد الفعل، أولا ـ إلى الاسم أو الظاهر المتقدّم. وثانيا ـ إلى ضمير المتقدم.»⁽¹⁾ ففي الجملة أمر بالرهبة منه تعالى، لا غيره، وذكر ابن عطيّة الأندلسيّ أنّ الأمر بالرهبة فيه معنى التهديد⁽²⁾.

وزاد في هذا التخصيص قوّة وجود الفاء الدالّة على معنى الشرط، فالمعنى: «إنّ أرضي واسعة، فإن لم تخلصوا العبادة في أرض، فاخلصوها في غيرها.»⁽³⁾ وذكر ابن عاشور أنّ أسلوب الاشتغال المقترن بالفاء أقوى منه إذا لم يقترن بها، فقال: «والتقديم إذا اقترن بالفاء، كان فيه مبالغة؛ لأنّ الفاء ...مؤذنة بشرط مقدر.»⁽⁴⁾ فهو يربط بين قوّة المعنى والمبالغة فيه، وأسلوب الشرط؛ وذلك أنّ أسلوب الشرط، إذ لم يكن مصرحاً فيه بأداته، يكون مقدّراً بشرط عام، وهو « يستلزم تحقق وقوع الجواب؛ لأنّ التعليق الشرطي بمنزلة ربط المسبب بالسبب، فإذا كان المعلق عليه أمرا محقق الوقوع؛ لعدم خلو الحدثان عنه، تعيّن تحقق وقوع المعلّق.»⁽⁵⁾.

وورد هذا الأسلوب، لغرض الحصر والتخصيص؛ للدلالة على الأمر بالتوحيد والإخلاص في العبادة في قوله تعالى: ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ العنكبوت: ٥٦.

---

(١) التحرير والتنوير ١ / ٤٥٤ـ ٤٥٥.

(٢) ينظر: المحرّر الوجيز ١ / ١٣٤. وقال أبو السعود: « والآية متضمّنة للوعد والوعيد ...» إرشاد العقل السليم ١ / ٩٥.

(٣) البحر المحيط ٧ / ١٥٣.

(٤) التحرير والتنوير ١ / ٤٥٥.

(٥) التحرير والتنوير ١ / ٤٥٦.

فالضمير (إيّاي) منصوب على الاشتغال، إذ اشتغل عنه فعله بنصب الضمير في (فاعبدون)، وهو ياء المتكلم بعد نون الوقاية . قال أبو السعود: « معناه: نعبدك ولا نعبد غيرك . وتكرير الضمير المنصوب للتنصيص على تخصيصه تعالى بكلّ واحدة من العبادة والاستعانة، ولإبراز الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب.»⁽¹⁾

ثالثاً ـ الاهتمام بالمتقدّم:

وهو من أهمّ أغراض التقديم، وأكثرها⁽²⁾، وورد أسلوب الاشتغال مفيداً هذا الغرض، في سياق التعبير عن معان عديدة، منها :

أ ـ الامتنان والاستدلال على كمال قدرة الله تعالى:

قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ النحل:٤ـ٥

يترجّح في هذا الأسلوب عند النحويّين نصب المشغول عنه (الأنعام)؛ لأنّ جملة الاشتغال معطوفة على جملة فعليّة، فالأولى أن تكون فعليّة أيضاً . وذلك يتحصّل بنصب المشغول عنه⁽³⁾. فيكون التقدير: وخلق الأنعام خلقها؛ « فيكون الكلام مفيدا للتأكيد لقصد تقوية الحكم اهتماما بما في الأنعام من الفوائد؛ فيكون امتنانا على المخاطبين وتعريضا بهم؛ فإنهم كفروا نعمة الله بخلقها، فجعلوا من نتاجها لشركائهم، وجعلوا لله نصيبا . وأي كفران أعظم من أن يتقرب بالمخلوقات إلى غير من خلقها . وليس في الكلام حصر على كلا التقديرين .»⁽⁴⁾

---

(١) إرشاد العقل السليم ١ / ١٧ .

(٢) ينظر: البلاغة العالية ٨٤ .

(٣) ينظر: البحر المحيط ٥ / ٤٣٨، و أوضح المسالك ٢ / ١٦٨ .

(٤) التحرير والتنوير ١٤ / ١٠٤ .

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) ﴾ الحجر:١٦ـ١٩

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ (٧) ﴾ ق:٦ـ٧

وردت (الأرض) مشغولاً عنه في الموضعين، وهي منصوبة في سياق جاءت فيه جملة الاشتغال معطوفة على جملة فعليّة، فترجّح النصب مناسبة للمعطوف عليه⁽¹⁾ . ووردت هذه الجملة في سياق التذكير بنعم الله تعالى، والاستدلال على كمال قدرته تعالى⁽²⁾ .

وقال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ (١) عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ (٢) خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ (٣) عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ (٤) ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ (٧) ﴾ الرحمن: ١ـ٧ .

فجملة الاشتغال هنا معطوفة على جملة ذات وجهين (الرحمن علّم القرآن)، وهي جملة اسميّة الخبر فيها جملة فعليّة . ويرى النحاة أنّ المشغول في مثل هذه الحال جائز النصب والرفع على السواء⁽³⁾. وقد جاء في هذه الآية منصوباً على الاشتغال⁽⁴⁾. «والمعنى أنه جعل السماء مرفوعة فوق الأرض.»⁽⁵⁾ فقد «خلقها مرفوعة، حيث جعلها مصدر قضاياه، ومسكن ملائكته، الذين ينزلون بالوحي على أنبيائه . ونبّه بذلك على عظم شأنه

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٥ / ٤٣٨ . ذكر أبو السعود أنّ الأرض هنا لم تقرأ بالرفع . ينظر: إرشاد العقل السليم ١ / ٧١ .

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ١٢ .

(٣) ينظر: البحر المحيط ٨ / ١٨٨ .

(٤) ينظر: شرح شذور الذهب ٥٤٨ .

(٥) فتح القدير ٥ / ١٣٢ .

وملكه.»(١) وفي النصب دليل على الاهتمام بفعل الرفع مسنداً إلى فاعله، في سياق بيان قدرة الله تعالى، وسعة ملكه. وفي تقديم السماء منصوبة، وتكرار ضميرها متّصلاً بالفعل « زيادة في الاهتمام بالاعتبار بخلقها.»(٢)

ب ـ البشارة بالنعيم في الآخرة (العناية بالمبشّر به):

نصّ البلاغيّون على أنّ التقديم في موضع البشارة، يكون لغرض تعجيل المسرّة(٣). ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ النحل: ٣٠ ـ ٣١

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ ﴾ فاطر: ٣٢ ـ ٣٣

يتبيّن أسلوب الاشتغال في قوله: (جنّات عدن يدخلونها) فالمشغول عنه جاء مرفوعاً على أنّه مبتدأ خبره الجملة الفعليّة (يدخلونها)(٤). وقيل: يجوز أن يكون بدلاً من (الفضل)؛ لأنّه كان سبباً في نيل الثواب، فنزل منزلة المسبّب، وتكون على هذا جملة

---

(١) البحر المحيط ٨ / ١٨٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٧ / ٢٣٧ .

(٣) ينظر: البلاغة العالية ٨٣، والبلاغة العربيّة أسسها وعلومها وفنونها ٣٦٤ .

(٤) ينظر: التبيان في إعراب القرآن ٢ / ١٠٧٥، والبحر المحيط ٥ / ٤٧٤ .

(يدخلونها) مستأنفة⁽¹⁾ .

ج ـ العناية بالسبب في الإنكار :

قال تعالى: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ القمر: ٢٤

حكم المشغول عنه في مثل هذا الأسلوب ترجيح نصب المشغول عنه؛ لأنّه وقع بعد همزة الاستفهام، وهي من الأمور الّتي يغلب وقوع الأفعال بعدها⁽²⁾ . وفي هذه الآية جاء المشغول عنه منصوباً⁽³⁾ . وجاءت جملة الاشتغال في أسلوب الاستفهام الإنكاريّ، والمعنى: «كيف نتبع بشرا كائنا من جنسنا منفردا وحده لا متابع له على ما يدعو إليه! »⁽⁴⁾

وتقديم المشغول عنه على عامله، أدّى إلى اتّصال الهمزة به مباشرة، دون فعله؛ «لأن محل الاستفهام الإنكاري هو كون البشر متبوعا لا اتّباعه له.»⁽⁵⁾ وهو موصوف بصفتين، شبه الجملة (منّا)، و (واحداً)⁽⁶⁾ في جملة الاستفهام الإنكاريّ، « أنكروا أن يرسل الله إلى الناس بشرا مثلهم . أي: لو شاء الله لأرسل ملائكة .»⁽⁷⁾ والمعنى: « كيف نتبعه، ونحن جماعة كثيرة وهو واحد منا، وليس بملك ! أي: لا نتّبعه، إنّا إذاً ـ إن اتبعناه ـ لفي ضلال: ذهاب عن الصواب، وسعر: جنون.»⁽⁸⁾

د ـ التفصيل :

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٧ / ٢٩٩، وفتح القدير ٤ / ٣٥٠ .

(٢) ينظر: أوضح المسالك ٢ / ١٦٥ .

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٧ / ١٢١، وفتح القدير ٥ / ١٧٨.

(٤) فتح القدير ٥ / ١٧٨ .

(٥) التحرير والتنوير ٢٧ / ١٩٦ .

(٦) تفسير الجلالين ٧٠٦ .

(٧) التحرير والتنوير ٢٧ / ١٩٦ .

(٨) تفسير الجلالين ٧٠٦ .

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ النساء:١٦٣ ـ ١٦٤ .

فقد نصب (رسلاً)⁽¹⁾ على إضمار فعل يفسّره المذكور بعده، والتقدير: قد قصصنا رسلاً عليك⁽²⁾، وعطفت عليها جملة اشتغال أخرى، نفي هذا الفعل عن ضمير المشغول عنه (ورسلاً لم نقصصهم عليك)، وهو موضع تفصيل⁽³⁾ . وقيل: هو معطوف على ما قبله حملاً على المعنى، وتقدير الفعل المحذوف تقديره (وأرسلنا رسلناً قد قصصناهم عليك ...)؛ لأنّ معنى (أوحينا): (أرسلنا)⁽⁴⁾، وعلى هذا يكون (رسلاً) الثاني معطوفاً عليه .

هـ ـ العناية بالسبب في الحكم:

إذ يقدّم المشغول عنه على فعله الّذي يدلّ على عقوبة المذنب، وفي المشغول عنه دلالة على نوع الذنب الّذي ترتّب عليه إيجاب العقوبة الّتي يبيّنها الفعل المتأخّر . وقد ورد هذا في أسلوب الابتداء المتضمّن معنى الشرط، في قوله تعالى:

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ المائدة: ٣٨. وقوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٦ / ١٨ .

(٢) ينظر: مشكل إعراب القرآن ١ / ٢١٣ .

(٣) ينظر: البحر المحيط ٣ / ٤١٤ .

(٤) ينظر: مشكل إعراب القرآن ١ / ٢١٣، و الجامع لأحكام القرآن ٦ / ١٨ .

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ النور: ٢

يرى النحويّون أنّ النصب هو الراجح في مثل هذا الأسلوب، فهم يرجّحونه، إذا كان الفعل المشغول أمراً أو نهياً⁽¹⁾ .ويرى سيبويه أنّ (زيداً فاضربه) أحسن من (زيد فاضربه)⁽²⁾. وفسّره أبو حيّان بأنّه يرجّح النصب في مثل قولهم: زيداً اضربه . وأجاز النصب في مثل (زيداً فاضربه) على الاشتغال أو الإغراء، ومنع رفعه على أنّه مبتدأ خبره الجملة بعده؛ لاتّصال الفاء به، بل على أن يكون (زيد) خبراً لمبتدأ محذوف، والتقدير: هذا زيد، والجملة بعده مستأنفة، فهما عنده جملتان، لا جملة واحدة، وخرّج الآية على أنّ المرفوع مبتدأ لخبر محذوف⁽³⁾ .

وأرى أنّ تقديم السارق والسارقة على الفعل فيه دلالة على صرف العناية إلى السبب في حكم القطع، وهو كونه سارقاً. والرفع يتضمّن معنى الشرط، فالمعنى: من سرق فاقطعوا. قال الزركشيّ: « فكما يفهم منه وجوب الجلد والقطع، يفهم منه كون السرقة والزنا علّة، وأنّ الوجوب كان لأجلهما، مع أنّ اللفظ من حيث النطق لم يتعرض لذلك، بل يتبادر إلى الفهم من فحوى الكلام.»⁽⁴⁾

أمّا قوله (الزانية)⁽⁵⁾، فقد ذهب سيبويه إلى أنّه مرفوع على مبتدأ لخبر محذوف تقديره: ممّا يتلى عليكم في الكتاب، ثمّ استؤنف الحكم بالفاء،، فتقدير الجملة عنده هو(ممّا يتلى عليكم حكم الزاني والزانية) فهو لا يجيز دخول الفاء في الخبر في نحو هذا التركيب،

---

(١) ينظر: شرح التسهيل ٢ / ١٣٢ .

(٢) ينظر: الكتاب ١ / ١٤٣، والبحر المحيط ٣ / ٤٩٣ .

(٣) ينظر: البحر المحيط ٣ / ٤٩٣ .

(٤) البرهان في علوم القرآن ٢ / ٩ .

(٥) قال ابن هشام: « القرّاء السبعة قد أجمعوا على الرفع في الموضعين . « شرح قطر الندى ١٩٣، ويقصد: في الآيتين.

مفسّراً تقديره هذا بقوله: « فجاء بالفعل بعد أنْ عَمل فيه المضمَرُ، وكذلك: (والسَّارِقُ والسَّارِقَة)، كأنّه قال: و فيما فرضَ اللهُ عليكم السارقُ والسارقةُ . أو: السَّارق والسارقة فيما فرض عليكم، فإنَّما دخلت هذه الأسماءُ بعد قصَص وأحاديثَ ... وقد يَجْري هذا فى زيد وعمرو على هذا الحدّ، إذا كنتَ تُخبِرُ بأشياء، أو تُوصِى، ثمّ تقول: زيدٌ . أي: زيدٌ فيمن أُوصى به؛ فأَحْسِنْ إليه وأَكرْمْه .»(١)

فالفاء أفادت الشرط؛ لأنّها دخلت في خبر المبتدأ المتضمّن معنى الشرط(٢). ولم يجز ذلك سيبويه في المبتدأ إلاّ إذا تضمّن معنى الشرط . وقيل: إنّه جائز إذا سبقته (ال) الموصولة، على إجرائها مجرى الاسم الموصول، فالمعنى عندهم على العموم، أي: التي زنت والذي زنى فاجلدوهما(٣). وأتّفق مع هذا القول؛ لأنّه متّفق مع المعنى المراد من الآية، مبيّن له، دون الحاجة إلى إعمال ذهن وتأويل .

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾ النساء: ١٦

جاءت جملة الاشتغال (واللذان يأتيانها منكم فآذوهما)، وقد رفع المشغول عنه (اللذان)، واتّصلت الفاء بالفعل المشغول، الّذي يدلّ على الحكم في المخبر عنه (المشغول عنه). والمعنى: «واللذان يفعلان الفاحشة فآذوهما .»(٤) إذ يجوز ـ عند سيبويه ـ في (اللذان)

---

(١) الكتاب ١ / ١٤٣، وينظر: التفسير الكبير ٣ / ١١٤، والبحر المحيط ٦ / ٣٩٣، وأوضح المسالك ٢ / ١٦٣ .

(٢) ينظر: أوضح المسالك ٢ / ١٦٥، وإرشاد العقل السليم ٦ / ١٥٦ .

(٣) ينظر: المحرّر الوجيز ٤ / ١٦١، والكشاف ٣ / ١١١ـ ١١٢، والتفسير الكبير ٣ / ، ١١٤، وهمع الهوامع ١ / ٤٠٣، وإرشاد العقل السليم ٦ / ١٥٦ . أمّا سيبويه فاشترط في المبتدأ المتضمّن معنى الشرط ان يكون موصولاً . ينظر: الكتاب ١ / ٣٩، والبحر المحيط ٦ / ٣٩٣ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ١ / ٤٦٣ .

أن يكون مرفوعاً على الابتداء، والجملة المتّصلة بالفاء خبرها؛ لأنّه اسم موصول، يجوز تضمّنه معنى الشرط(١)؛ بسبب ما فيها من دلالة على الإبهام والعموم(٢).

وقال تعالى: ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمَۢا ﴿٣١﴾ ﴾ الإنسان: ٣١ فكلمة (الظالمين) منصوبة على الاشتغال، بفعل مناسب للفعل المذكور، والتقدير: أوعد الظالمين، أو كافأ(٣)، أو ويعذّب الظالمين، فجملة الاشتغال هذه جملة فعليّة معطوفة على الجملة الفعليّة (يدخل من يشاء)(٤) . ونرى الجملة المعطوف عليها جاءت في بيان رحمته تعالى، فقدّم الفعل عنايةً به مسنداً إلى فاعله . أمّا جملة الاشتغال، فقد جاءت لبيان عذابه، وأنّه لاحق بالظالمين لظلمهم؛ فقدّمهم؛ لأنّ في تقديمهم بياناً لسبب عذابهم، وهو ظلمهم .

وفي بلاغة هذا الأسلوب قال الزركشيّ :» فإنّ الشيء إذا أضمر، ثم فسر، كان أفخم ممّا إذا لم يتقدم إضمار.»(٥)

وقال تعالى في وعد المؤمنين بالجنان :﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾ النساء: ٥٧

وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾

---

(١) ينظر: الكتاب ١ / ٤٣، والبحر المحيط ٣ / ٤٩٢ .

(٢) ينظر: مشكل إعراب القرآن ١ / ١٩٣، وهمع الهوامع ٣ / ١٣٣ .

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٢٩ / ٤١٦.

(٤) ينظر: البحر المحيط ٨ / ٣٩٣ .

(٥) البرهان في علوم القرآن ٣ / ٩٠ .

النساء: ١٢٢.

في أسلوب الاشتغال ورد الاسم الموصول مع صلته مشغولاً عنه، مقدّما على معموله الّذي شغل عنه بنصب ضميره(١)، والاسم الموصول مع صلته يمثّل السبب في حصول الفعل جاء خبراً عنه (سندخلهم)، فالمعنى: « والذين صدقوا الله ورسوله وأقروا له بالوحدانية ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالنبوة ... وأدوا فرائض الله التي فرضها عليهم ... سوف ندخلهم يوم القيامة إذا صاروا إلى الله جزاء بما عملوا في الدنيا من الصالحات (جنات) يعني: بساتين (تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا) يقول: باقين في هذه الجنات التي وصفها (أبدا) دائما.»(٢) ويجوز أن يعرب الاسم الموصول مبتدأ خبره الجملة الفعليّة (سندخلهم جنّات)، وفي السين تأكيد للوعد(٣).

وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ٩ ﴾ العنكبوت: ٨ـ ٩

فالاسم الموصول (والّذين آمنوا وعملوا الصالحات)، في محلّ رفع على أنّه مبتدأ، خبره الجملة (لندخلنّهم في الصالحين). ويجوز أن يكون في محلّ نصب على الاشتغال(٤). وجاء الفعل المشغول مؤكّداً بنون التوكيد الثقيلة (لندخلنّهم)، فسّر القرطبيّ معناه بأنّه «مبالغة على معنى فالذين هم في نهاية الصلاح وأبعد غاياته وإذا تحصل للمؤمن هذا

---

(١) ينظر: روح المعاني ٥ / ١٥١ .

(٢) جامع البيان ٤ / ٢٨٦ .

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم ٢ / ١٩٢ .

(٤) ينظر: فتح القدير ٤ / ١٩٣، و روح المعاني ٢٠ / ١٣٩.

الحكم تحصل ثمرته وجزاؤه وهو الجنة.»⁽¹⁾

ومثل هذا الأسلوب في تأكيد الفعل المشغول، جاء في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ النحل: ٤١.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ العنكبوت: ٥٨

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ العنكبوت: ٦٩.

يرى ابن هشام أنّ الاسم الموصول في هذه المواضع مبتدأ متضمّن معنى الشرط، والفعل المؤكّد خبره، منزّل منزلة الجواب، « فإذا قدر قبله قسم كان الجواب له وكان خبر المبتدأ المشبه لجواب الشرط محذوفا للاستغناء بجواب القسم المقدر قبله .»⁽²⁾

و ـ الاعتبار بالمتقدّم :

قال تعالى: ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ ﴾ الفرقان:٣٦ ـ ٣٧

فنصب (قوم نوح) على الاشتغال⁽³⁾، وفيه اهتمام بقوم نوح؛ « لأنّ حالهم هو محلّ العبرة؛ فقدّم ذكرهم، ثمّ أكّد بضميرهم .»⁽⁴⁾ فقصّتهم «عبرة لكل الناس على العموم،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٣ / ٢٩١ .

(٢) مغني اللبيب ١ / ٥٣١ .

(٣) ينظر: فتح القدير ٤ / ٧٦، وأضواء البيان ٦ / ٥٣.

(٤) التحرير والتنوير ١٩ / ٢٦ .

يتّعظ بها كلّ مشاهد لها، وسامع لخبرها.»⁽¹⁾ ويجوز عطفه على الضمير في المتّصل في (دمّرناهم)، أي: ودمّرنا قوم نوح بالإغراق . فتكون الجملة (لمّا كذّبوا الرسل أغرقناهم) مبيّنة لـ(دمّرناهم)⁽²⁾.

ي ـ الاهتمام بالمتقدّم لبيانه ما قبله :

ومن ذلك ما جاء في موضع الإنذار، وقد نصّ البلاغيّون أنّ التقديم يفيد في مثل هذه موضع الإنذار، تعجيل المساءة⁽³⁾ .

قال تعالى :﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾ إبراهيم: ٢٩

يجوز أن تكون (جهنّم) في الجملة (جهنّم يصلونها) منصوبة على الاشتغال، وهي على هذا جملة مستأنفة استئنافاً بيانيّاً⁽⁴⁾. وجازت فيها أوجه أخرى، وهو أنّها منصوبة على أنّها بدل أو عطف بيان من (شرّ مآب)، أو منصوبة بفعل محذوف، تقديره (أعني)، فيكون الأسلوب بيان بعد إبهام، وفيه «مالايخفى من التهويل.»⁽⁵⁾ وعلى الأوجه كلّها تكون (جهنّم) بياناً لما قبلها، وهو مصير الطاغين، وتوضيحاً له . فقد جاء مسنداً إليه في الجملة السابقة (وإنّ للكافرين لشرّ مآب)؛ والإخبار به مؤكّد بـ(إنّ)، ولام التوكيد، وبتقديم خبره عليه . ووقع في الجملة اسم (إنّ) مؤخّراً نكرة مخصّصة بإضافته إلى نكرة، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، وهي صفة تنبئ بشرّ مستطير، وسوء منقلب،

---

(١) فتح القدير ٤ / ٧٦ .

(٢) ينظر: البحر المحيط ٦ / ٤٥٧ .

(٣) ينظر: البلاغة العالية ٨٣، والبلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ٣٦٤.

(٤) ينظر: فتح القدير ٤ / ٤٤٠، و ٦٢٦ .

(٥) روح المعاني ١٣ / ٢١٨ .

صرّح به، وبيّن في الآية الّـتي تليه . فكان الاهتمام بـ(جهنّم)، فقدّمت على فعلها؛ لأنّها ذكرت كناية لا تصريحا في الآية الّتي سبقتها، فجاء ذكرها صراحة، بياناً للكناية عنها، فقدّمت على معمولها، وزيادة في توكيد ارتباط الفعل بمفعوله، مسنداً إلى فاعله، تكرّر ذكر (جهنّم) بذكر ضميرها متّصلاً بفعله (يصلونها) .

ووردت هذه الجملة في قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ ﴾ ص: ٥٦ .

قيل إنّ هذه الآية نزلت في قتلى بدر، فيكون معنى (دار البوار): دار الهلاك في الدنيا (أي: أرض بدر)، وعليه تكون (جهنّم) منصوبة على الاشتغال(١). وقيل: معنى دار البوار، دار القرار في الآخرة، وعلى هذا تكون (جهنّم) بدلاً من (دار البوار). وجملة (يصلونها) حالاً من (جهنّم)(٢).

ك ـ في سياق الذمّ:

قال تعالى :﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ ﴾ الشعراء: ٢٢٤

فالشعراء جاءت مرفوعة على الابتداء(٣)، خبرها الجملة الفعليّة (يتّبعهم الغاوون)، والمعنى: «أن الشعراء يتّبعهم، أي: يجاريهم، ويسلك مسلكهم، ويكون من جملتهم الغاوون، أي: الضالون عن الحق»(٤) وفسّر الزمخشريّ معناها على القصر، فقال: «ومعناه: أنّه لا يتّبعهم على باطلهم وكذبهم، وفضول قولهم، وما هم عليه من الهجاء وتمزيق اعراض، والقدح في الأنساب، والنسيب بالحرم، والغزل والابتهار، ومدح من

---

(١) ينظر: البحر المحيط ٥ / ٤١٣ .

(٢) ينظر :التحرير والتنوير ٢٣ / ٢٨٥ .

(٣) ينظر :الكشاف ١ / ٨٩٥، وروح المعاني ١٩ / ١٤٧.

(٤) فتح القدير ٤ / ١٢١ .

لا يستحق المدح، ولا يستحسن ذلك منهم، ولا يطرب على قولهم - إلا الغاوون.»(١) ولم يؤيّده ابن عاشور، وذكر أنّ « تقديم المسند إليه على المسند الفعلي هنا يظهر أنّه لمجرد التقوي والاهتمام بالمسند إليه؛ للفت السمع إليه . والمقام مستغن عن الحصر؛ لأنّه إذا كانوا يتّبعهم الغاوون، فقد انتفى اتّباعهم عن الصالحين.»(٢).

وهي جملة استئنافيّة جاءت «لإبطال ما قالوا في حق القرآن العظيم، من أنّه من قبيل الشعر، وأنّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الشعراء، ببيان حال الشعراء المنافية لحاله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد إبطال ما قالوا .»(٣) فالمذموم «من يهجو ويمدح شهوة محرمة، ويقذف المحصنات، ويقول الزور، وما لا يسوغ شرعاً.»(٤)

ل ـ الاهتمام بالمتقدّم ورعاية الفاصلة:

قال تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ (١٧) مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ﴾ عبس:١٧ ـ ٢٠

يجوز أن تكون كلمة (سبيل) منصوبة على الاشتغال، فالضمير في (يسّره) عائد إليها(٥)، وأجاز مكيّ ابن أبي طالب القيسيّ أن يكون مفعولاً ثانياً للفعل بعده، على أن تكون الهاء عائدة إلى الإنسان(٦) . وفي معناه أقوال، الأوّل ـ سبيل خروجه من بطن أمّه. والثاني ـ سبيل الخير والشرّ . والثالث ـ سبيل النظر السديد المؤدّي إلى الإيمان(٧). وذكر

---

(١) الكشاف ١ / ٨٩٥ .

(٢) التحرير والتنوير ١٩ / ٢٠٨ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٦ / ٢٦٩، وينظر: روح المعاني ١٩ / ١٤٥ .

(٤) البحر المحيط ٧ / ٤٥ .

(٥) ينظر: الكشاف ٤ / ٧٠٣، والتفسير الكبير ٣١ / ٥٥، والتسهيل لعلوم التنزيل ٤ / ١٧٩ .

(٦) ينظر: مشكل إعراب القرآن ٢ / ٨٠١، والتبيان في إعراب القرآن ٢ / ١٢٧٢ .

(٧) ينظر: المحرّر الوجيز ٥ / ٤٣٨ـ ٤٣٩ ،والتفسير الكبير ٣١ / ٥٥ ـ ٥٦، والتسهيل لعلوم

أبو السعود أنّ دلالة السبيل في هذا الموضع تشمل هذه المعاني كلّها، فتعريفه بـ(ال)، دون إضافة يدلّ على عمومه، فالمعنى: «ثم سهل مخرجه من البطن بأن فتح فتح فم الرحم وألهمه أن ينتكس، أو يسّر له سبيل الخير والشر، ومكنه من السلوك .»(١) ونصّ ابن عاشور على أنّ « تقديم (السبيل) على فعله للاهتمام بالعبرة بتيسير السبيل بمعنييه المجازيين، وفيه رعاية للفواصل.»(٢)

وقال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ﴾ النازعات:٢٧ ـ ٣٢

نصبت (الأرض) على الاشتغال(٣)، وقد قدّمت على فعلها؛ «لأجل الاهتمام بدلالة خلق الأرض وما تحتوي عليه ... والاشتغال يتضمن تأكيدا، باعتبار الفعل المقدر العامل في المشتغل عنه، الدالّ عليه الفعل الظاهر، المشتغل بضمير الاسم المقدم»(٤) وجملة الاشتغال هذه معطوفة على جملة فعليّة . وعطفت عليها جملة اشتغال أخرى، هي قوله تعالى: (والجبال أرساها)، وردت فيها كلمة (الجبال) منصوبة على الاشتغال أيضاً(٥).

م ـ مراعاة النظم :

نصّ على هذا الآلوسيّ، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾

التنزيل ٤/ ١٧٩ .

(١) إرشاد العقل السليم ٩ / ١١٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ١٢٤ .

(٣) ينظر: فتح القدير ٥ / ٣٧٩ .

(٤) التحرير والتنوير ٣٠ / ٨٦ .

(٥) ينظر: فتح القدير ٥ / ٣٧٩ .(يوثق)

﴾ يس: ٣٨ ـ ٣٩

فجملة الاشتغال هي (والقمر قدّرناه)، فقد قرئ القمر بالرفع على الابتداء، وجملة (قدّرناه) خبرها(١) . وقرئ بالنصب على الاشتغال(٢) . والمعنى: جعلنا القمر «يسير سيرا آخر، يستدلّ به على مضيّ الشهور، كما أنّ الشمس يعرف بها الليل والنهار .»(٣)

وذكر الآلوسيّ أنّ تقديم المعمول هنا (القمر)؛ لغرض مراعاة النظم، وفسّر ذلك قائلاً: «فإنه قال: (الليل نسلخ منه النهار)، ثم قال: (والشمس تجري)، فاقتضى حسن النظم أن يقول: (والقمر قدرناه)؛ ليكون الجميع على نسق واحد في النظم . ولو قال وقدرنا القمر منازل، لما كان بتلك الصورة في الحسن.»(٤) وأشار الآلوسيّ إلى دلالة نصب المشغول عنه على العناية بشأن الفعل (قدّرناه)، قائلاً :» ونصب (القمر) بفعل يفسره المذكور، أي: وقدّرنا القمر قدّرناه . وفي ذلك من الاعتناء بأمر التقدير ما فيه، وكأنّه لما أن شهرهم باعتباره، ويعلم منه سرّ تغيير الأسلوب .»(٥) ولم يشر إلى ما تدلّ عليه قراءة الرفع، فمن المعلوم أنّ مدار الحديث فيها ومحوره هو المسند إليه (القمر)، والإخبار عنه بفعله المسند إلى فاعله القدير (قدّرناه)؛ بياناً لقدرته، وبديع خلقه وتقديره وتدبيره . ويتبيّن هذا الاهتمام بالقمر آية من آيات الخالق العظيم، في إسناد الفعل إلى ضميره، قال الزمخشريّ: « ولا بدّ في (قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ) آمن تقدير مضاف؛ لأنّه لا معنى

---

(١) ويجوز أن تكون معطوفة على (والشمس تجري) عطف مفرد على مفرد، أي: يكون (القمر) معطوفاً على الشمس . ينظر: التحرير والتنوير ٢٣ / ٢٢ .

(٢) وهي قراءة ابن عامر وعاصم وحزة والكسائيّ . ينظر: التيسير في القراءات السبع ١ / ١٨٤، وإتحاف فضلاء البشر ٤٦٧ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٥٧٣ .

(٤) المثل السائر ٢ / ٣٧ .

(٥) روح المعاني ٢٣ / ١٦ .

لتقدير نفس القمر منازل . والمعنى: قدرنا مسيره منازل.»(١) وبيّن دلالة هذا الأسلوب ابن عاشور، فقال: « وعدّي فعل (قدرنا) إلى ضمير (القمر)، الّذي هو عبارة عن ذاته، وإنّما التقدير لسيره، ولكن عدّي التقدير إلى اسم ذاته، دون ذكر المضاف، مبالغة في لزوم السير له من وقت خلقه حتى كأن تقدير سيره تقدير لذاته .»(٢)

رابعاً ـ التعظيم:

وهو من أغراض التقديم، فيقدّم ما يراد تعظيمه(٣). قال تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ﴾ النور: ١ .

ذهب بعض النحويّين إلى أنّ (سورة) خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذه سورة . وأجازوا أن تكون مبتدأ لخبر محذوف، يقدّرونه بـ(فيما أوحينا إليك)، أو (فيما يتلى عليكم)(٤). وعن ابن عطيّة أنّه يجوز أن تكون مبتدأ خبره (الزانية والزاني...) وما بعدها، فالمعنى: السورة المنزلة والمفروضة كذا وكذا، فالسورة عبارة عن آيات مسرودة لها بدءٌ وختمٌ، إلاّ أن يكون المبتدأ ليس بالبيّن أنّه الخبر، إلا أن يقدر الخبر في السورة كلها، وقد ردّ عليه أبو حيان بقوله: «وهذا بعيد في القياس .»(٥) ولم يقولوا بإعرابها مبتدأ خبره الجملة الفعليّة (أنزلناها)، مع وجود الضمير الرابط فيها، بسبب تنكير سورة، فهم يرون أنّ الابتداء بالنكرة هنا، من غير مسوّغ، « إلاّ إنِ اعتُقد حذف وصف، أي: سُورَة معظمة

---

(١) الكشاف ٤ / ١٩ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٣ / ٢٢ .

(٣) البلاغة العربيّة أسسها وعلومها وفنونها ٣٦٦ .

(٤) ينظر: التبيان في إعراب القرآن ٢ / ٩٦٣، والتسهيل لعلوم التنزيل ٣ / ٥٨، وفتح القدير ٤ / ٤ .

(٥) البحر المحيط ٦ / ٣٩١

أو موضحة أَنزَلْنَاهَا.»(١) وعلى هذا يجوز إعرابها مبتدأ، خبره الجملة بعده . فالمعنى سورة عظيمة أنزلناها. فالدلالة على التعظيم بيّنة من تنكير (سورة)، وتقديمها على العامل . وتقوية المعنى بإعادة ذكر ضميرها متّصلاً بالفعل في (أنزلناها وفرضناها)، ففي الجملة (سورة أنزلناها) « تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفي ما عداها.»(٢) فـ«هذه (سورة) عظيمة القدر.»(٣)

وقال تعالى: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ الإسراء:١٠٥ ـ ١٠٦.

يجوز أن يكون منصوباً على الاشتغال، على تقدير فعل محذوف، والتقدير: وفرقنا قرآناً فرقناه(٤) . والنصب في هذا السياق راجح على الرفع؛ لأنّ الجملة معطوفة على جملة فعليّة، هي جملة (وما أرسلناك) . قال الآلوسيّ: « ولا بد من تقدير صفة لقوله: (وَقُرْءانًا)، حتى يصح كونه، كأن يجوز فيه الابتداء؛ لأنّه نكرة لا مسوغ لها في الظاهر للابتداء بها، والتقدير: وَقُرْءانًا أي قرآن أي عظيماً جليلاً.»(٥)

وذهب ابن عاشور إلى أنّ (قرآناً) منصوب على الحال من الضمير المنصوب في (فرقناه)، وقال: « فإنّ اسم القرآن مشتقّ من القراءة وهي التلاوة؛ إشارة إلى أنه من جنس الكلام الذي يحفظ ويتلى .»(٦)

وقال تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٩٢ـ ٣٩٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣ / ٢٦١ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن ١ / ٥٦١ .

(٤) ينظر: مشكل إعراب القرآن ١ / ٤٣٥، والكشاف ١ / ٦٩٩ .

(٥) البحر المحيط ٦ / ٨٤ .

(٦) التحرير والتنوير ١٧ / ٢٦٢ .

ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦ ﴾ الحج: ٣٦

جاءت كلمة (البدنَ) منصوبة على الاشتغال، أي: وجعلنا البدن جعلناها(١). فمعنى (والبدن جعلناها من شعائر الله): «من أعلام دينه التي شرعها الله تعالى.»(٢) فالمعنى «أن الله أمر بقربان البدن في الحج من عهد إبراهيم «عليه السلام» وجعلها جزاء عمّا يترخص فيه من أعمال الحج . وأمر بالتطوّع بها، فوعد عليها بالثواب الجزيل، فنالت بذلك الجعل الإلهي يمنا وبركة وحرمة، ألحقتها بشعائر الله، وامتن بذلك على الناس بما اقتضته كلمة (لكم).»(٣) ونصّ ابن عاشور على أنّ « تقديم (البدن) على عامله للاهتمام بها تنويها بشأنها.»(٤)

قال تعالى:﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٢ ﴾ الحج: ٧٢

جاءت الجملة (النارُ وعدها الّذين كفروا)، والمشغول عنه فيها مرفوع بالابتداء، والجملة بعده خبره . فالضمير في (وعدها) عائد على (النار)، وهو المفعول الأوّل له، و(الّذين كفروا) مفعوله الثاني(٥). ويجوز أن تكون (النار) خبراً لمبتدأ محذوف، والتقدير:

---

(١) والبدن هي الإبل أو البقر، كالأضحية من الغنم، تهدى إلى مكّة؛ سمّيت بذلك لعظم بدنها؛ لأنّهم كانوا يسمّنونها، ثمّ يهدونها . ينظر: روح المعاني ١٧ / ١٥٥ .

(٢) روح المعاني ١٧ / ١٥٥ .

(٣) التحرير والتنوير ١٧ / ٢٦٢ .

(٤) التحرير والتنوير ١٧ / ٢٦٣ .

(٥) ينظر: الكشاف ١ / ٨٠٩، والبحر المحيط ٦ / ٣٥٩ .

هو النار(١)؛ فتكون هذه الجملة على هذا استئنافاً بيانيّاً.

والمعنى: «النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم إن نلتم بزعمكم وإرادتكم .»(٢)

* * *

---

(١) ينظر: الكشاف ١ / ٨٠٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣ / ٣١٥ .

الخاتمة

بعد انتهاء الرحلة في رحاب هذا الأسلوب العربيّ الفصيح، وبيان دلالته وبلاغته، يمكن إيجاز أهمّ النتائج الّتي خلص إليها البحث، بما يأتي:

١ ـ إنّ أسلوب الاشتغال قائم على أساس تقديم ما حقّه التأخير، ويتمثّل في تقديم المفعول به على عامله، على وفق الأغراض البلاغيّة الّتي يقتضيها هذا الباب، من عناية به أو تخصيص، أو ما غير ذلك .

٢ ـ إنّ في إعادة ذكر المفعول المقدّم على عامله، بصيغة ضميره العائد عليه، تقوية للمعنى المراد من الجملة، ففيه تأكيد على استحصال المعمول أكثر، وتعزيز لما كرّر ذكره، أو حثّ على ما يريده المتكلّم . وعلى هذا يعدّ اسلوب الاشتغال من وسائل التوكيد؛ لتعلّق المتعلّق بعامله مرّتين، الأولى بنفسه، والأخرى بضميره .

٣ ـ إنّ المشغول عنه ـ في حال نصبه ـ يكون متحدّثاً عنه، ولو بصورة ثانويّة . فالحديث في أصله عن المسند إليه. وقد اكتسب المشغول عنه ذلك بتقديمه، وتكراره بذكر ضميره.

٤ ـ وهو ـ في حال رفعه ـ مسند إليه، عمدة في الجملة . فهو مبتدأ خبره الجملة الّتي يكوّنها الفعل المشغول مع ما عمل فيه . وفي المبتدأ هذا إشعار للسامع أنّ حديثاً سيخبر عنه، فتتهيّأ نفسه إلى الإصغاء إليه .

٥ ـ ورد أسلوب الاشتغال في مواضع ليست بالقليلة في القرآن الكريم . ومن أغراضه الّتي أفادها توكيد المعنى وتقوية الفعل، وتقوية تعلّق المشغول عنه بفعله .

٦ـ ومن أغراضه القصر والتخصيص، إذ عدّه بعض العلماء من أكثر المعاني الّتي يفيدها الاشتغال . وهو غرض يتأتّى من تقديم المفعول على فعله .

٧ـ ومن أغراضه أيضاً العناية بالمتقدّم، وهو متأتّ ـ أيضاً ـ من تقديم المعمول على عامله . ويلحظ هذا الغرض في القرآن الكريم من مواضع جاء فيها السياق للتعبير عن عدّة معانٍ منها: الامتنان والاستدلال على كمال قدرة الله تعالى، والبشارة بالنعيم في الآخرة، والعناية بالسبب في الحكم، وغيرها . وقد يفيد هذا الأسلوب تعظيم المتقدّم .

* * *

المصادر والمراجع

ـ إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر: الدمياطي (ت١١١٧ هـ)، تح . آنس مهرة، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٩٩٨ .

ـ إحياء النحو: إبراهيم مصطفى ،القاهرة، ط٢، ١٩٩٢ .

ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن العظيم: أبو السعود (ت٩٥١هـ)، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

ـ الأساليب الإنشائيّة في النحو العربي: عبد السلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي ـ مصر، ط١، ١٩٧٠ .

ـ الأصول في النحو: ابن السراج (ت ٣١٦ هـ)، تح . عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط٣، ١٩٨٨ .

ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشتقيطي (ت ١٣٩٣ هـ)، تح . مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر ـ بيروت ١٩٩٥ .

ـ إعراب القرآن: النحاس (ت ٣٣٨هـ)، تح . د . زهير غازي زاهد، عالم الكتب ـ بيروت، ط٣، ١٩٨٨ .

ـ الإعراب والتركيب بين الشكل والنسبة، دراسة تفسيريّة: د. محمود عبد السلام، دار مرجان للطباعة ـ مصر، ط١، ١٩٨٤ .

ـ الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين: أبو البركات الأنباري (ت ٥٧٧ هـ)، تح . د.جودة مبروك محمّد مبروك، و د.رمضان عبد التوّاب، مكتبة الخانجي ـ القاهرة، ط١ ـ ٢٠٠٢ .

ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (٦٨٥هـ)، دار الفكر ـ بيروت .

ـ أوضح المسالك إلى ألفيّة ابن مالك: ابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ)، تح . محمّد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل ـ بيروت، ط٥، ١٩٧٩ .

ـ البحر المحيط: أبو حيّان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تح . الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، و وزكريا عبد المجيد النوقي، وأحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ٢٠٠١ .

ـ البرهان في علوم القرآن: الزركشي (٧٩٤هـ)، تحأ محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة ـ بيروت، ١٣٩٦ .

ـ البلاغة العربية، أسسها وعلومها وفنونها: عبد الرحمن حسن الميداني، دار القلم ـ دمشق، ط١، ١٩٩٦ .

ـ البلاغة العالية، علم المعاني: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب ومطبعتها ـ القاهرة، ط٢، ١٩٩١ .

ـ التبيان في إعراب القرآن: أبو البقاء العكبري (ت ٦١٦هـ)، تح . علي البجاوي، عيسى البابي الحلبي ـ بيروت .

ـ التبيان في أقسام القرآن: أبو عبد الله الزرعي (ت٧٥١ هـ)، دار الفكر ـ بيروت .

ـ التحرير والتنوير: ابن عاشور (ت ١٣٨٤هـ)، الدار التونسية (د . ت)

ـ التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر: عبد الفتاح لاشين، دار المريخ ـ الرياض، ١٩٨٠ .

ـ التسهيل لعلوم التنزيل: الغرناطي (ت٧٤١هـ)، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط٤، ١٩٨٣ .

ـ تفسير الجلالين: جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) وجلال الدين المحلي (ت ٨٩٢هـ)،

دار الحديث ـ القاهرة، ط١ .

ـ التفسير الكبير: الرازي (ت ٦٠٤ هـ) دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ٢٠٠٠ .

ـ تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) دار الفكر ـ بيروت، ١٤٠٦ .

ـ تفسير مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠هـ) ى، تح . أحمد فريد، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ٢٠٠٣ .

ـ توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك: ابن أمّ قاسم المرادي (ت ٧٤٩هـ)، تح. عبد الرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي ـ القاهرة، ط١ ، ٢٠٠١ .

ـ التيسير في القراءات السبع: أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ)، تح . أوتو تريزل، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط٢، ١٩٨٤ .

ـ تيسير الكريم الرحمن: السعدي، تح . ابن عثيمين، مؤسّسة الرسالة ـ بيروت، ٢٠٠٠ .

ـ جامع البيان غي تفسير القرآن: الطبري (ت ٣١٠هـ)، دار الفكر ـ بيروت، ١٤٠٥.

ـ الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (ت٦٧١ هـ)، دار الشعب ـ القاهرة .

ـ جمهرة أشعار العرب في الجاهليّة والإسلام: أبو زيد القرشي، تح . علي محمد البجاوي، مطبعة نهضة مصر، ١٩٨١ .

ـ حجّة القراءات: ابن زنجلة، تح . د . سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط٢، ١٩٨٢ .

ـ الحماسة البصرية: علي بن الحسن البصري(ت ٦٥٩هـ)، تح . مختار الدين أحمد، عالم الكتب ـ بيروت، ١٩٨٣ .

ـ خصائص بناء الجملة القرآنيّة ودلالتها البلاغيّة في تفسير (التحرير والتنوير): إبراهيم عليّ الجعيد، رسالة دكتوراه، كلّية اللغة العربيّة، جامعة أمّ القرى، ١٩٩٩ .

ـ دراسات في البلاغة العربيّة: د . عبد العاطي غريب علاّم، منشورات جامعة بنغازي،

ط١، ١٩٩٧ .

ـ دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجانيّ (ت ٤٧٤هـ)، تح . د . التنجي، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط١، ١٩٩٥ .

ـ دليل السالك شرح ألفيّة ابن مالك: عبد الله الفوزان ، دار مسلم ، ط١، ١٩٩٨ .

ـ ديوان مهلهل بن ربيعة، تح . طلال حرب، الدار العالمية (د . ت) .

ـ روح المعاني: الآلوسي (١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

ـ زاد المسير: ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، المكتب الإسلامي ـ بيروت، ط١، ٢٠٠٠.

ـ شرح التسهيل: ابن مالك (ت ٦٧٢ هـ) ،تح . د . عبد الرحمن السيد، ود . محمّد بدوي المختون ، هجر للطباعة والنشر ـ الجيزة، ط١، ١٩٩٠ .

ـ شرح الشافية الكافية: ابن مالك (ت ٦٧٢هـ)، تح . علي محمّد معوّض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلميّة ـ بيروت، ط١ ٢٠٠٠ .

ـ شرح شذور الذهب: ابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ)، تح . عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع ـ سوريا، ١٩٨٤ .

ـ شرح قطر الندى وبلّ الصدى: ابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ)، تح . محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ط١١، ١٣٨٣ .

ـ شرح كافية ابن الحاجب: رضي الدين الأستراباذي (ت٦٨٦هـ)، المطبعة العثمانية ـ الهند ١٣١٠ .

ـ شرح الكافية الشافية: ابن مالك (ت ٦٧٢هـ)، تح .علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ،دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ٢٠٠ .

ـ فتح القدير: الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ)، دار الفكر ـ بيروت .

ـ الكتاب: سيبويه (ت ١٨٠هـ)، تح . عبد السلام هارون، دار الجيل ـ بيروت، ط١ .

- الكشاف: الزمخشري (٥٣٨هـ)، تح . عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

- الكليات: أبو البقاء الكفوي (١٠٩٤ هـ)، تح . عدنان درويش، ومحمّد المصريّ، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٩٩٨ .

- اللباب في علل البناء والإعراب: أبو البقاء العكبري (ت ٦١٦هـ)، تح . عبد الإله النبهان، دار الفكر - دمشق، ط١، ١٩٩٥ .

- اللمع في العربية: ابن جني (ت ٣٩٢هـ)، تح . فائز فارس، دار الكتب الثقافية - الكويت.

- معاني النحو: د . فاضل صالح السامرائي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط١، ٢٠٠٧ .

- المفضّليات: المفضّل الضبي (ت ١٦٨هـ)، تح . أحمد محمّد شاكر وعبد السلام محمّد هارون، دار المعارف - القاهرة، ط٦

- همع الهوامع: السيوطي (ت ٩١١هـ)، تح . عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية - مصر.